ليلة فى سجن المالكى

عبد الستار حتيتة

• روايـــة •

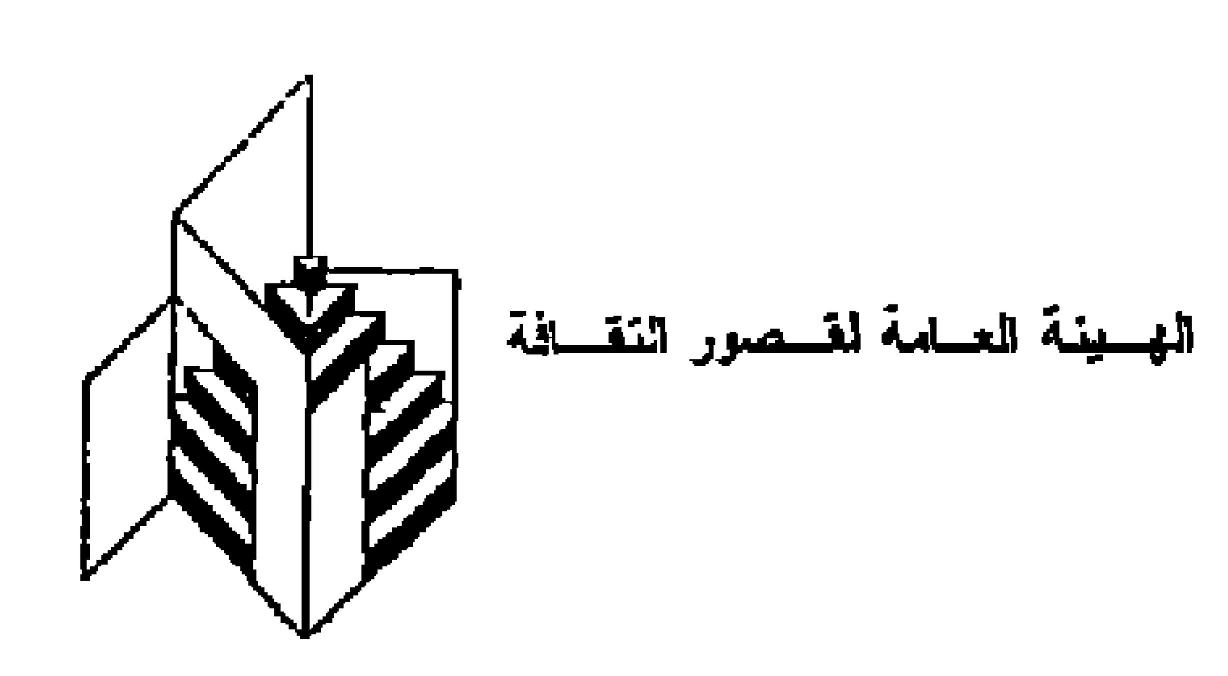
اللوحة من أعمال الفنان شادى النشوقاتى

(١)

الهيئة العامة لقصور الثقافة

اهداءات ٢٠٠٣
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة

الهيئة العامة لقصور الثقافة



الجوائز (١)

ليلة فى سجن المالكى

عبد الستار حتيتة

* رواية *

إهداء:

إلى حبي الوحيد

.. إلى الأبد!

إشارة

الأشعار الواردة في هذه القصة للشاعر الشعبى المرحوم عوض عبد القادر المالكى ، وأحداث القصة لا علاقة لها بسيرته الذاتية.

(١)

يموج العقل ، يدور ويدور ، دون توقف، بلا رحمة.. إلى الأبد.

لا يمسك مصيره بيده... لا يحصل على ما يريد ، ويهوى، ويحب..

لا شيء سوى شاحنة، يدفع هو وأخوته مؤخرتها، كل صباح، لترتج، وتزأر ، قبل أن يصفق والده بابها، مخلفا لهم زيتها المحروق، ورائحة دخانها.. أمام البيت!

آخر الليل ، تعود قرقعة محرك الشاحنة، يرتفع صوتها، ثم تنطفيء أنوارها، وتهمد تحت الظل.

كانت الشاحنة، إذا أرادت أن تنام جوار المنزل، تدور حوله دورة، يعلو صوتها، وتزفر وتئن، ولاتسكت إلا وقد استيقظ الأطفال الستة الصغار، والثلاثة الأكبر، والمالكي.. حينذاك تتفتح نوافذ المنزل، تشعل أمهم مصباحا آخر، وتتجه به للمطبخ.

يلتف جميع الأولاد حول الشاحنة، وتستطيل وتتكمش أجسادهم النحيلة أمام أضوائها الكاشفة!

وترى أكياس الطماطم والبصل والأرز تتلقفها الأيدى الصغيرة، وتختفى داخل البيت.

وهذا، مع ذلك، نادرا ما يحدث ، ربما مرة فى الأسبوع، أما الأيام الأخرى، فتجرى بطريقة مرعبة.

يصبح الأب، نفس الأب، شاذا ، صموتا، غريب الأطوار، يستثار لأتفه الأسباب، لدرجة أن الذبابة، التافهة، التى تحوم أمام وجهه، يتعارك معها، يسبها.. ويسب الزوجة والأطفال، وقد يحطم كل ما تطاله يداه.. ويكون ذلك، غالبا، عندما يعود ملطخا بالزيوت والشحوم السوداء، من رأسه لقدميه.. مفلسا!

فى أول الليل، فى مثل هذه الأحوال، يسمع فحيح الشاحنة قادمة ، كأنها تتلصص، ولا تريد أن توقظ أحدا.. يشعر الأولاد بثقلها وهى تحاذى السور البحرى، وبعد صوت انغلاق الباب، وله صفقة مميزة، تأتى الخطوات.. خطوات والدهم، يلج المنزل، فيحبسون أنفاسهم تحت الغطاء الأحمر البالي.. ومثل كل ليلة، يبدأ صوت الأم، خفيضا.. هامسا:

- «نحط عشا؟» -

- «لا ..» -

- «نسخن لك ميه؟» -

- «لا ..» -

ثم يضيف بصوته القوى الجاف:

- العويل تعشوا؟» -

- «تعشوا ..» -

- « .. وايش تعشوا ..؟» -

«تعشوا ، وخلاص ..» -

ولا يقتنع ، يزفر..

- «العويل باتوا من غير عشا ..

ودين ربى مامنك بركة.. سويتى الرز كله، خلصتيه فى يوم واحد.. يارب ريحنى.. خذنى، يا مالك الملك» -

يغرق، بعدها، البيت كله فى صمت .. سكون بارد، وليل طويل، تسقط فيه الدموع الحارة تحت الأغطية!

فى البكور ، تدفع الأيدى الصغيرة مؤخرة الشاحنة، بلا ضجيج، كأنهم يدفعون تابوتا للموتى.. شعور جنائزى!

من معه نقود، فى هذه الصحراء ليؤجر شاحنة - ؟ يقف الأب وسط السوق يوما كاملا، دون عمل.

ويتصادف أحيانا أن يتعاقد معه أحد الموسرين لنقل أغنامه إلى الشرق.. بعيدا عن الجفاف.

ثمة مشاعر جديدة تترافق مع كُلٍّ عمل، يطلقها الأب، فيصبح إنسانا. لينا عطوفا يشترى لأولاده الفلافل الساخنة والزبادى والحلوى.

لكنّ هذا لا يتكرر كثيرا ، ثلاث - أربع مرات فى الفصل الكامل.

قرب نهاية الربيع، تخطى المالكي عامه السابع عشر، وبدأ يطيل وقفته فوق الرابية التي نما عليها الأقحوان الأصفر.

.. نما كذلك، داخل صدره، شعور ممض بالوحدة. وإلى جانبه، ترعرعت نبتة جديدة، ضربت بجذورها حول قلبه، وتشابكت ، وكبرت ، نبتة اسمها : نوارة!

هنا تقرر الفرار.. إلى ليبيا، اتفق، أولا، مع صاحبيه، سويد وشويقي، ثم فاتح أمه، قبل موعد الرحيل بيوم واحد، وهي بدورها ، انتظرت حتى عادت الشاحنة، آخر الليل، تجر ذيل الخيبة.. ومع ذلك أخبرت زوجها.. (بو المالكي).

هذا الرجل الأشيب، الملطخ بالزفت، كان إذا ما تكالبت عليه المصائب، يرفع رأسه، لتطوف عيناه على مدى السهوب الواسعة، يغيب في الزمن الغابر.. ثغاء النعاج، يسمعه، ويسمع صهيل الخيول وأصوات الدلاء تقرقع تصب الماء للإبل!

وفي البعيد، تمتد مساحات شاسعة تغطيها سنابل الشعير الممتلئة فإذا أعادت زوجته السؤال، صباح اليوم، «ها.. ايش رايك؟» - أدرك أنه في قاع بئر من الضياع، يفتح عينيه.. محول، جفاف ، تراب تذروه الرياح على مرمى البصر، وهنا شاحنة معطوبة، زيت محروق ودخان أسود!

- «.. باهي..» - وتتصلب عضلات وجهه. خطوط شهباء، كأعواد

القذاح الجافة. يصمت على أنه موافق.

وفيما تتركه.. تعود صورة النجع فى رأسه، الدجاج ينقب، فى فريق منتظم، فى التراب. الديك الأحمر منفوش الريش والعرف، يتزعمه، فنجان شاى الضحوية تحت ظلّ الرواق.. درس الشعير، رائحة السنابل، ملمسها ووخزها الحبيب.

واليوم.. زمان شين!

(٢)

.. يا لهذه الصحراء الشاسعة الواسعة المترامية الأطراف، أى قبرات تعشش فيها، تضع بيضها الصغير، بحجم عقلة الأصبع! ويالها من حوافر.. حوافر الخيول والحمير، ترسم المسالك والدروب، كم جمل عبرها في قافلة، وهرس، بخفه، الحصى والشوك. قوافل التمر والزيتون والشعير.. تضرب بأقدامها رقعة الصحراء، دون كلل.

حينما يفتح الشوق فمه، ويمد أسنانه ليأكل من قلب بو المالكى قطعة قطعة، يسرع لأقرب دكان، ويحمل علبة تبغ، ويتجه لجاره، اشجيليف، يجلسان جوار السور ويدخنان، ويسافران إلى زمان بعيد!

- «ايش ريت .. هالصحرا..

الرجالة.. أولاد على.. كم عيلة؟

.. ألفين.. والمتفرعين منهم آلاف.. وين توا.؟ -

يسأل اشجيليف - مشعلا لفافته .. يواصل

- «من فوق السلوم.. من فوق الحجاج(١).. لعند آخر الصحراء، قبلى.. سلك طويل.. من اللي زرعه.. الطليان.. الانجليز؟ - ويحدق فى الفضاء، أمامه، وكأن بو المالكى لا يسمعه، يضيف :

- «.. فى الحرب الأولى، أيام عمر المختار، كهربوا السلك، وحرثوا الأرض.. زرعوها ألغام.. لكن عديت.. أنا واللى معى، عدينا

.. قالوا الحقوا سيدى عمر يريد رجال وسلاح..

وأخرى خبز.. ونحن عرب، هزينا بطون الخيل، ومسكنا فى ظهرها، وطارت بنا، من فوق السلك واللغم..» -

وبعد صمت طويل، أشعل بو المالكى لفافة، وأمسك بطرف الخيط من اشجيليف - «.. الطليان ساقوا العرب من السلوم، من برانى، لعند العامرية، والبحيرة.. ما يريدونا ، لكن احنا ردينا.. سبنا الصبايا يطبخن الحيط فى الميه للعويل عشان يرقدوا.. وغربنا، نلحقوا سيدى عمر.. فى الليل.. بوى.. جدى، خالى، وعرب واجد(٢)، ما لهم حد.. فى الليل، بنادق أم روحين، وسكاكين..

كلها تجرى مغرب، اللى نسى صدريته(٣) وشنته(٤) معلقة على جابر(٥) البيت .. ما هناك وقت عشان تلبس.. لكن سيدى عمر قيدوه بالحديد.. سلسلة حديد فى يديه وقدميه. صقر مجروح تحت مخالب بومه، حتى إن طار تلحقه وتجيبه..ساقوه للمشنقة، والصبايا يزغردن، طاحت النظارة.. بعدها.. كله بكا..» -

قال اشجيليف -» .. وبعدها ، فى حرب الجرمان والنجليز، فى إعلمين(٦) مشيت للمستر ڤاچز.. كان قاعد فى سروال نص.. قلت له..

انتو خذيتوا غنمي، وناقتي، وما عندي منين ناكل.. وايش كان رده.. الكلب؟! قال، خلاص بدون(٧).. بدون يمشي لاسكندرية.. مفيش بدون.. نو(٨) بدون.. نو كامل(٩)نو شيب(١٠). وبعدها اشتغلت عنده.. في الكامبو(١١).. خدام في ميس(١٢) الضباط، ومنهم تعلمت تدخين السجاير..» ـ وألقى اشجيليف عقب لفافته بعيدا وكان صوته، قبل أن يغرق في الصمت، خافتا، ومبتورا، كأنه قادم من بعيد.

في مثل هذه الجلسات ، يستعيد بو المالكي شتات نفسه، ويبدأ، مجددا، وبعد ما يستمع لإشجيليف، جاره، في التفكير بمصير الشاحنة، هل يبيعها؟ ثم هل يسافر ولده، المالكي..؟ وكم بقي من النقود.. ما أسعار الطماطم والبطاطس والأرز..؟ لماذا رُزِقَ كل هؤلاء الأطفال..؟ وقبل أن يغيب، بعيدا عن بيت جاره، لا ينسى أن يصيح ـ «بكره، في العصر يا شجلوف، نقعدوا ونحكوا..» ـ

(٣)

أما النساء، جارات أم المالكى، وجارات سوارم - زوجة اشجيليف، فعندما يتذكرن تلك الأيام، ويستعدن الأحداث، لا تخرج عن ذات القصص التى رددنها عشرات المرات.. فى سهراتهن ، فى منزل بو المالكى، قبل أن يعود بشاحنته، من العمل.

وكانت النسوة، يصورن سحنات (النجليز) و (الچرمان).. يغطيها رمل الصحراء.. مذعورة وشرسة، .. تسمع، مثلاء أن المتحاربين، (الفرنج) كانت لهم أسنان تمزق اللحم الآدمى الحى، دون رحمة. وتتخيل العجائز، وهن يقصصن، وقتما كن يحملن أطفالهن، نشيطات، يقطعن مئات الأميال، متعبات، منهوكات القوى، ينهبن الصحراء - «أى والله يا وليدى.. مر علينا ترك وعبيد سود، وهنود، من فوق هالتراب..» - وتشير العجوز إلى الأرض التى تجلس عليها.

- «وبقينا ، نحن ، على أرضنا ..»

تتم كلامها، وتصمت، وترحل وحدها، بعيدا، فى الزمن الغابر.

كان المركز التجارى، قبل الحرب، فى مدينة برانى.. وترى مع مطلع كل صباح الآلاف من رؤوس الأغنام، تتزاحم وتثغو، كأنها

ترفض أن تباع أو تشترى، وهى تثير الغبار حولها!

أما قوافل الإبل، وقد جاءت لتوها من الدروب الجنوبية، دروب الواحات والنجوع! فناخت ، واستراحت من أحمال التمر والزيتون، والشعير ، وحر الشمس، والآفاق اللامتناهية.

وترى من فوق الخليط الصاخب واللهجات المتفرقة لتجار المغرب والمشرق.. ترى خلال الغبار العالق فى ضباب الصباح، رؤوس الخيول، طويلة، منسابة مرفوعة فى شمم!

لكن الحال تبدل.. خلفت الحرب، مع الجرحى واليتامي والثكالى، شارعا مرصوفا، يربط بين الإسكندرية ومدينة مرسى مطروح.. حتى السلوم. كما خلقت حقول الألغام الأرضية المضادة للأفراد والأغنام والحمير والدجاج.. تركتها إما ملاصقة لجذور النباتات البرية، أو تحت الثرى، حيث كان أولاد على يزرعون الشعير على أمطار الشتاء.

وأقام الجنود .. جنود بريطانيا ، قبل رحيلهم ، محطة للسكة الحديدية بمدينة مرسى مطروح.. فتحولت ، بعدهم، إلى مركز تجارى، وبقيت مدينة برانى، وحدها، تمر عبرها قوافل الإبل ولا تتوقف!

إبان عقد الستينيات، جرت أكبر عملية جراحية لتسكين أبناء القبائل، فأقامت الدولة المساكن والمدارس وأعمدة البرق والهاتف

، وأنشأت بجانب محطة السكة الحديدية، بمرسى مطروح، مظلة خرسانية طويلة، لينتظر تحتها المسافرون القطار ويودّعوا، كذلك، ذويهم!

لأول مرة، تطوى القبائل خيام الشعر والخيش، وتستقر في بيوت من الحجارة والطين، لكن ما العمل ـ «البيوت استقرت لكن نحن .. مازلنا» ـ قالت عجوز كانت سهرانة في بيت بو المالكي.. ـ «ايش ورانا غير الرحيل ورا المزن.. ورا العشب.. لكن هنا ... برره» ـ

وتضيف أخرى ـ «لوين نرحلوا، توا، هناك حدود.. سلوك وعساكر ببنادقهم .. وبعدها الحال تبدّل، في البردى، والجبل الخضر.. ما عاد يهم حد، لا العشب ولا الغنم ولا النياق.. توا، يا خيتى، هناك نفط، وايش هو؟ نقولك، حاجة غالية .. لها ريحة، وغريب، تبيعه وتشرى من وراه عربية بيچو،، من النجليز.. وبلادهم، أخرى، بعيدة، ورا البحر الأزرق..» ـ

والعائدون من زيارات أولاد عمومتهم ، في برقة، من الرجال والنساء، يؤكدون، ورا السلك، في ليبيا، خير ماله حد.. خير لا يوصف ـ ».. تحسبهم يحرثوا.. برررره! ولا حد يرعى ضأن، ولا ساقي يروى ناقة.. هناك خدم، خدم من كل ملة.. سوادين ومنياوية» ـ

وتتدخل عجوز عادت لتوها من زيارة ابنة عمها فى بنغازى، وهى تغمز أم المالكى :

ـ «تبدلت الدنيا، وبومجاور، صاحب بيت(١٣) عزية، يملا ميه من البير بالبيك أب، ويسلم على صاحب بيتك، بو المالكى، ويقولك، بلفيه.. إن كان الحال بالهون(١٤). والحال من عند الله، يعنى يا خيتى، ما هناك حشم(١٥) إن كان باع معزاته، وما لقى شغلة، وهو ما هو غريب عليك، ابن خيك، بلغى بو المالكى يمشى له، أو يبعث وليدك الكبير، المالكى، وهو يلقى له شغلة.. هذا الحال، والحال من عند الله، وما هناك حشم»ـ

.. وبدأت أرجل أهالى السلوم، والمقيمين معهم، الذين جاءوا من المدن الأخرى، بدأت الأرجل الحافية تجرى تحت الظلام، تصعد الهضبة وتهبط منها.. من خلال الدروب، والوديان الضيقة.. عبر الأسلاك الشائكة وحقول الألغام.

.. التهريب، هذه الكلمة الكبيرة، التى لا تعنى، هنا، سوى عبور الحدود، من مدينة إمساعد الليبية، إلى مدينة السلوم المصرية وكل مهرب، فوق كتفه، أو فوق ظهر حماره، جوال سكر، شاى أو نعال.. أقمشة.. والحمير، ربما حفظت الطريق الصاعد الهابط، وربما، كذلك، عرفت كيف تخطو بين رؤوس الألغام دون أن تخطىء، وتطأها. ترقى الهضبة وخلف ذيولها تتناثر بيوت السلوم

المظلمة! وأمام عيونها اللوزية، المتقرحة، تتراءى مشاعل مدينة إمساعد ، وراء خطوط الأسلاك الشائكة، وحقول الألغام!

الحمير، القصيرة النشيطة الحركة، لم تتوقف، حتى بعد ما تشددت الحراسات، وأصبح جنود الحدود يطلقون النار بكثافة، وبهدف القتل.. فإن الحمير قامت بالمهمة، بالنيابة عن أصحابها ، الذين يرسلونها ، بالنقود ، ورسالة بالطلبات، من مندوب تجار إمساعد، الذى ينتظرها على الجانب الآخر من الحدود..

جلس بو المالكى ذات مساء بجوار صاحبه إشجيليف.. وكان، هذا الأخير ، غاضبا - «قالوا سبب غلو السجاير صلحنا مع اليهود، كيف، بالله، يكون هذا ، يابو المالكى..» -

صمت أبو المالكى وهو يشعل لفافتى التبغ.. ثم بعدما ظن أن إشجيليف قد ارتوى من الدخان.. وهدأ ، بدأ مهمته.

- «.. وإنت ، يا شجلوف، جارى، ولابد ننصحك، توا ، لك كم سنة من غير شغل.. وما تقول لى إنك كبير، وما تقدر.. أنت، توا، قاعد تحكى عن زمان قديم، نجليز وجرمان، وطليان.. لكن الزمان تغير واليوم نا .

نقولك، هناك أصحاب لى مغربين، راح معهم، ومن السلوم، تقدر تقعد فى مطبخ، تسوى شاهى للهرابة.. وتكسب قرشين.. عويلك واجد، ويريدوا مصروف» - لكن تقعد وتقول أولاد على سووا

كذا وأصلهم كذا، والصحرا فيها كذا، وما فيها كذا.. هذا ما يوكل العويل يا شجلوف يا خوى..»ـ

اضطرب إشجيليف، وارتعصت أصابعه الطويلة.. اهتزت لفافة التبغ.. وتكور على نفسه، ولم يجب.

وبعد ذلك بفترة طويلة، جاء صوته، متقطعا، خائفا، وكأنه كان يحتبس البكاء..

ـ «.. ما عاد هناك تهريب، واللى مشوا، ردوا، أو قتلتهم الحكومة، أو حبستهم.. ما عاد هناك شيء، يابو المالكى، ما عاد هناك!»ـ

واستعاد بعضا من شجاعته، وأضاف

ـ «.. وحتى اللى مشوا عشان يزوروا هلهم فى بنغازى وطبرق، قتلوهم.. واندفنوا فى السلوم»

وبعد هنيهة ، وكأنه تذكر ذلك فجأة :

ـ «فوزية بنت جمعة، تعرفها؟ بنت جمعة الحبونى، كانت راكبة جحشة، والعطيبة هذى كانت جفالة.. طلعت عن طابور الحمير، وداست على لغم.. انت سمعت عنها.. سمعت.. كيف لموا لحمها فى الليل.. قالوا، لكن نا عارف، ما لموا منها فتفوته، قالوا دفنوها، لكن ما صار ، ما لقوا منها شى.. لاهى، ولا الجحشة، طيرتهم الألغام..»ـ

الأحاديث التى تدور بين جدران غرف الضيافة (المربوعة) عن

التنقل بين السلوم وإمساعد، هى أحاديث عن أشلاء العابرين..
الجرحى والمشوهين، وعمن كتبت لهم السلامة.. تدور فناجين
الشاى. تسمع الرشفة القصيرة الحادة من الفنجان و-«الله
والنبى تنظر!» - فى دهشة..

جوع وجدب..

محول، وانتظار.. ترى فى العيون الصحراوية الواسعة والتى لا
تطرف، الصمت.. صمت الحجر الصوان، وهى مفتوحة على
المدى البعيد.. البعيد..!

مدن يلفها الانتظار، يزورها القطار القديم الكئيب المعفر، ينعب
عصر كل يوم، مخترقا حقول الألغام، قبل أن يحط فى محطة
مرسى مطروح،

- «خررررراب...خرررررراب..» - فيلقى بالقادمين المنهكين، وصحف
الأمس، وأقفاص الطماطم الخربة.. حبال الليف، والمحاريث
و«المنياوية» - أبناء الصعيد - فى طريقهم إلى الحلم، الأمل إلى
أضواء إمساعد وراء الحدود!

(٤)

ـ «من حبك، ما بطل نوحى،

يا طب أمراضى وجروحى،

وتعزى بالحيل على

ودى نحكيلك يا زينة،

درنا راى وفيه مشينا(١٦)

نا ومعاى رفاقة لى..(١٧)

هكذا، بدأ المالكى، فيما هو يعتصر جسده المنهك ، بين جدران حجرة الحبس الباردة، ينسج خيوط كلمات بدوية موزونة، يحكى فيها المشوار.. من باب بيت أبيه بو المالكى، حتى عتبة باب السجن.. وما بينهما طريق طويلة، تبدأ من محطة السكة الحديدية، وتغرب.. تجتاز الحدود.. وتعود إلى هنا، حيث الجدران الأربعة العُريانة، ورائحة البول، والكوة الحديدية المعتمة!

الرحلة، الحس المرهف، والروح المتحرقة، ما يلاقيه الرجل المنبوذ المبعد.. خاوى الوفاض، عثرات تليها عثرات.. مهان، حقير الشأن، بلا عمل.. لا يجد من يسمع شكواه..!

هكذا استغرق المالكى بين الجدران الأربعة، يوم يمر، ويومان. الطعام طين تحويه صفيحة صدئة. الماء ماء صرف عفن فى كوز..

وشهر يعقبه شهر.

ـ «من حبك ما بطل نوحي» ـ

نار الوجد ، الشوق، شعور الحاجة إليها عبر الغبار المتطاير من تحت شراشف المكنسة، وهي تعمل بهمة ونشاط أنثويين.. أمام باحة منزلها ، بجوار الربوة العالية..

نوارة.. ابتسمت ، توقفت عن هز ذراعها بالمكنسة القصيرة، واستدارت، وابتسمت، فانعكس بريق الضحى على أسنانها المجلوة. سحبت أهداب عينيها الكحيلتين عندما استدار هو، في نفس اللحظة، من قمة الرابية، نحوها.

حينما فتحت نافذة الحجرة، التي ترقد فيها مع أخوتها، لمحته يؤرجح طوله الفارع تحت خيوط شمس البكور الذهبية، في طريقه الصاعد، المعتاد، حيث يشرف من عل على المدى الفسيح للآفاق الواسعة فوق الهضاب البعيدة.. الهضاب الضبابية الملتحمة مع حد السماء.

واليوم، من هناك، وقبل أن ينحدر متجها لمنزل والده، بو المالكي، التقت وإليها هي بالذات، فعاودت العمل، بهمة واضطراب..

(كان ذلك في الطريقة التي يتطاير بها الغبار تحت ضربات المكنسة)!

كل صباح، وزقزقة الزرزور تعزف تحت الفضاء الرحيب، يفتح

النافذة، نافذة بيته، فيجدها تترقبه خلسة، من خلف نافذتها.
وحالما تخرج، تنطبع أقدامها الحافية على الثرى الرطب أمام بيتها.
وتتلفت وتتاكش أخاها الصغير(الذى يبدو دائما بدون سروال).
و(تطرطش) الماء على وجه أختها، الطفلة الناعسة، وتدور حول نفسها، كأنها تؤدى رقصة ما.. فراشة، فراشة ملونة! حالما تختفى داخل البيت، ويبقى كوز الماء الملقى جوار السور، والثوب المنشور على الحبل، يهمسان له: أن انتظر! هكذا إذن صارت الحال.. كبرت الفراشة وطارت، وكأنها ما خطت معه يوما لخص الشيخ، باكية حافية القدمين، ملطخة بفحم الكتابة الأسود..

(٥)

السجن. المالكى فى الليل. غرفة حبس انفرادى . البرد يضرب، والريح تسوط. يتناهى صوت المطر. هنيهة، وصمت.. يخطو الحذاء الثقيل عبر امتداد ممر عنبر السجن الخطوات تتوقف. ينكمش الجسد المرتعص. خطوة، خطوتان.. مرت الليلة دون شتائم!

والشتائم لها أنواع - «إنت ، يا بدوى، يا ابن الشرموطة، خذ أقوالك يا جربوع يا ابن الكلب.. انتو يا وله صحيح بتهربوا الحشيش من ليبيا ، طيب..خلى أخوك يجيب حتة معاه، وهو جاى فى الزيارة.. روح كده وانت جربان، دانا حكرمك آخر كرم.. بس أعمر الطاسة!»

أو تبدأ بشكل مختلف - «.. خد ياله، احكى لى يا مسجون، عديت السلك ازاى، وبعدين فيه ألغام، انتو يا وله اللى اسمكو أولاد على.. على كده القذافى قريبكم، انتو جواسيس يا وله.. بس انا ممكن أربيك.. عارف ممكن أربيك ازاى..

أعرفك ؟ هه؟ عايز تعرف؟ طظ فيك وفى أبو على الكبير بتاعكوا.. عارف البيادة دى.. أحطها على راسك وعلى راس أكبر واحد فى عيلتك، غور ، جاتك داهية، قال أولاد على قال..» -

أو تتخذ طريقة أخرى، غالبا ما تكون مقدمة ليوم عمل فى ردهات السجن :

- « .. بقى انتو عاملين عصابات فى الجبل.. ومعاكو سلاح.. جبتوه منين يا ولاد الكلب.. ياللا بره، بره، كله بره ع الشغل، أنا حشويكو تحت الشمس يا جرابيع..» -

أما شتائم ضباط السجن، فكانت من نوع آخر، ربما أكثر رقيا :

- « .. عبد الناصر لمكوا من الصحرا، قال توطين.. ما يعرفش انكم غنم، تحبو تسرحوا وتسرحوا.. أنا اعلمكوا ازاى تتوطنوا عندنا ، هنا ..» - ويشير إلى غرف الحبس!

والضباط الذين لا يفهمون الوضع بالضبط تتخذ شتائمهم طابعا آخر..

- « .. بتقول أولاد عمك ليبيين، وكنت رايح لهم زيارة.. فهمنى بقى، أنت بروح أمك، مصرى ولا ليبى.. ما انا لازم افهم.. بقولك إيه.. ما تستعبطش على أمي.. انت وضعك إيه بالضبط.. يا سماعين، خده، فتح له مخه، وهات لى ابن العرص ده تانى..» -

وكان ضابط آخر برتبة أكبر يكتفي بكلمة واحدة - «اتفوووا .. » - على الوجوه البدوية المذعورة. وكان لا يمر على عنابر السجن إلا مرة واحدة في الشهر.

أما المساجين الذين يقضون مدة عقوبة التسلل - ستة أشهر - فكانت الكلمات تتناقل فيما بينهم، في همس وخوف :

- «بيش امسكت(١٨)؟ -» -

- «جوال سكر.. فى السلوم، وانت؟» -

- «مقطع قماش، وخنوا حمارى..

وكان معاى كيلو شاهى، ومات واحد سمالوسى(١٩) كان معانا .. ضربوا عليه رصاص .. وامسكونا.. منين اللي معاك؟» -

- «(قطاعانى)(٢٠) ومعانا ثلاثة(٢١) معابدة ممنوع عليهم الزيارات والخروج، وهناك واحد آخر.. (حبونى)(٢٢) ممسوك قبلى، راعى إبل، خذوها منه وداروا له قضية تسلل وقاعد يبكى من يوم ماجا.. من عشرة أيام..» -

ويمضى النهار، يجر خلفه نهارا آخر، الجسد يزداد نحولا، وتزداد النقر المحفورة على جدار السجن نقرا جديدة!

(٦)

هناك نوع من الحب، يمتد بين قلبين بعيدين مثل خيط من الضوء.
حزم المالكي حاجياته بعمامة قديمة مهترئة، وبكر مع الطيور ناحية محطة القطار.. ولا يدرى كيف توقف، والتفت وراءه، ورفع يده، ولوح..
نوارة، تحت ضباب الصباح، تشرف من فوق الرابية.. رابيته التى طالما اعتلى رأسها يستشرف الآفاق!
نزلت، قبل أن يستدير ويعاود الخطو. جرت إليه، كان ثوبها المفضض يطير مع الريح، وحزامها الأصفر يعكس الأشعة الذهبية الأولى لشمس النهار الوليد..
- «وين ماشى، خليك..» -
جاء صوتها على بعد خطوتين منه، لفحته الكلمات، وأنفاسها الحارة، فارتعشت يده منه، وهو يمدها أمامه، إليها..
هب نسيم الصباح البارد، فمس خده، وهز ذؤابة شعره، وأرعده إحساس غريب اكتنفه فجأة، غامت عيناه. ضغطت اليد الدافئة - يدها - يده، والتف ذراعان حنونان حول خصره، انتفضت ، قفزت على بعد خطوتين وقفت أمامه من جديد.
وجهها منكس، تحدق فى أطراف أصابع قدميها الحافيتين.. ربما

سقطت دمعة، فقد كان الطل يلفهما، والندى يبلل الشعر والخدود والأيدى..

- «أى متى ترد..؟» -

- «ترجينى(٢٣).. ؟» -

-«نين نموت(٢٤)..» - هذه إجابتها!

.. ثمة خيالات بعيدة تتحرك، أشعة الشمس أضحت أكثر قوة، نفضت الغبش المائى العالق على جفون الليل الثقيلة، ونشرت الصحو والدفء تحت سماء صيف صافية.

صوصوت قبرة، وطارت تصفق بجناحيها مرحبة، ثم حطت فى مكان قصى.. فهى المرة الأولى التى التقى فيها المالكى مع نوارة.. جارته.. بنت إشجيليف. كانت البيوت بعيدة. تنحدر من جانب الربوة العالية، وتغط فى نوم متصل من هنا، تبعد محط السكة الحديدية كيلو مترين. قفلت نوارة عائدة .. تعثرت .. توقفت، انتفض شعرها - وكان مثل عرف مهرة - وتلفتت وراءها .. عصرت يديها المبللتين بالدموع بثوبها.. واختفت .. لم يحدد المالكى، هل توجهت صوب الرابية، أم ناحية بيت أبيها.. اختفت فجأة، كأنها طارت.. فراشة توارت فوق امتداد الأرض المنبسطة غير المحروثة، وهى تصفق بجناحيها الثقيلين من الحزن!

ارتفعت الشمس قليلا، ومالت. سكبت خطوطا طويلة تماوجت فى

السراب، مثل نهر بعيد شفاف.. وتبدت آفاق الصحراء.. قاتمة، فى أول الأمر، ثم ، عندما ارتفعت الشمس أكثر، ظهرت تقاطيع الهضاب والروابى فى الجنوب.وأضفت عليها خطوط الظل السوداء الحادة، ملامح شوهاء، مخيفة، ترتجف تحت القيظ.

ـ« .. كان يقعد هنا ..» ـ جلست نوارة فوق قاعدة حجرية، أعلى الرابية، وتلفتت حولها، كأنها تخشى أحداً.

كانت البيوت المتناثرة خلف ظهرها، فى جانب المنحدر، غارقة فى الصمت. وتحت السماء الزرقاء الصافية، تحركت ريح خفيفة، فأزاحت غيمة بيضاء صغيرة، وساقتها إلى الجنوب فى يسر، بلا توقف.

ـ «يا نوارة..» ـ صاح أخوها.

كان قد ارتقى نصف الرابية، ففزعها

ـ«أمك تنور عليك(٢٥)..» ـ

حين تمشى سوارم، أمها، بين الغرف وخارج الحوش، تبدو كِكيس طحين ضخم مكسو بالقماش الرخيص.

بيد أنها تمتلك، مع ذلك، نظرة شريرة، حينما تلتمع فوق خديها المنتفخين، ينكمش أطفالها فى زوايا البيت.. وربما لهذا السبب تتساءل النسوة، وقت السمر، وأمامها بلا مواربة ـ «نوارة، بنت سوارم؟لا .. لا ، نوارة بنت بوها، اشجيليف!» ـ

.. وشجلوف، كما يحلو لسوارم مناداته حينما تكون رائقة المزاج، رجل طيب، وسيم. له وجه أحمر، وعينان لونهما أخضر باهت، مثل حبتي زيتون.. وعلى جبينه العريض خصلات شعر سوداء ملتوية تبرز من تحت (الصمادة) البيضاء التي يعتني بها، ولا يخلعها إلا ساعة النوم، أو ساعة الغضب.

لم يكن يعيب اشجيليف غير شيء واحد: شراهته المفرطة للتدخين.

- «وين رحتي؟ فيش تديري فوق العلوة؟ تشرفي على الرجالة؟

ايش اندير فيك توا؟ نقتلك؟

نقطعك، ندفنك؟ هه..؟» -

كان اشجيليف يدخن خلف البيت، تحت النافذة، ومنها انسابت معزوفة زوجته، وهي توبخ نوارة.

تبدل صوتها الآن، أصبح أكثر رقة، وكأن بكاء نوارة السبب..

- «يا نويرة، من لي غيرك؟» - قالت سوارم.. وصدر حفيفٌ، ربما عانقت ابنتها.

- «يالله يا بنيتي، سوى غدا بوك.. ونا ماشية عند بيت بو المالكي، يمكن نلقى عندهم بصلات، وحبتين طماطم عشان التقلية..» -

عادت بعد ربع ساعة تقريبا، منهكة من الحر، وجسدها البدين ينز عرقا ويفوح بالقرنفل والحناء وزيت الزيتون.

في جانب طرحتها السوداء، التي تغطي رأسها وتنسدل على

كتفيها العريضين، صرة صغيرة.. فكتها في نفس الوقت الذى تهاوت فيه على الحصيرة لتجلس.

أخرجت ليمونة واحدة صغيرة صفراء، وثلاثة قرون فلفل أخضر، وتفاحة متوسطة الحجم.

- «وين السكينة، وين خوتك.. هذى تفاحة من عيت بو المالكى.. ذوقة» -

- «وليش عيت بو المالكى يشروا تفاح؟ عندهم فرح، ولازايرهم ملك؟!» -

سألت نوارة، تطلعت للتفاحة من تحت رموشها الطويلة الموقد يهر بين يديها. كانت الأم وابنتها تتحدثان بصوت مرتفع، مرتفع للغاية، تحت سقف المطبخ الملطخ بالسخام.

- «حزن بعيد عنك، عندهم حزن، ولدهم الكبير، المالكى، غرب اليوم.

شرا لهم كيلو تفاح قبل ما يفارقهم، عشان يفرح أمه، ويفرح خوته ويفرح بوه.. وغرب، مشى لليبيا..» -

-«وأى متى يجى..؟» -

- «يجى وقت مايجى، امسكى..» -

اعطت ابنتها قطعة من التفاحة ونهضت، في يدها السكين، وفى اليد الأخرى بقية الثمرة. اجتازت عتبة الباب تزعق على أطفالها

بأسمائهم ـ «يا حميدة، معاى تفاحة، يا سالم معاى تفاحة، يا خويرة معاى..» ـ تلاشى صوتها.

ملأ هدير الموقد أذنى نوارة. تشممت بطن قطعة التفاحة وظهرها. تأملتها ، وعاشت معها فى مكان بعيد، قبل أن تغلق عليها قِدْراً، وتدسه على آخر رف قرب السقف. كان الدخان يملأ المطبخ، وزعيق سوارم يهز البيت، الطعام يحترق..!!

(V)

.. وحكايات اشجيليف مخيفة، تبدأ دائما في هذا الوقت، عصرا، والشمس تنحدر جهة المغيب، فيشير بإصبعه لأبو المالكي، وقد لطخه الزيت الأسود، جهة الآفاق البعيدة، وكأنه يقول - «انظر ..هناك..» -

ويمسح المساحات الصفراء الواسعة البعيدة بعينيه الكابيتين ، ويلوح بيده أمام وجهه ويصمت!

هكذا إذن تمضى الأيام، سريعا سريعا، عندما تصفو . أما إذا تكدرت، فتتكاسل، وتبطىء، ولا يدفعها غير دخان التبغ!

-«ما عاد هناك خير، يابو المالكى. جدب، والأرض اللى تجيها مطر، تحتها ألغام، وما عاد هناك ربيع..» -

والربيع الذى يقصده اشجيليف، يعنى اخضرار المراعى والوديان والسهوب البعيدة، والشعير وقد شقق الأرض المحروثة، وبرز عاليا أصفر يبرق تحت الشمس بسنابله الممتلئة الفتية، وأنفاس الأغنام الدافئة من الشبع، تختلط بعبق الأرض، فتنتشى طيور أم بريمة والزرزور، وتنفض أجنحتها، فيما تعشش القبرات بين سكك المحاريث ، بين سيقان الزرع، مطمئنة..

وتمتلىء بطون الحمير، وتعاند الشكيمة، فى ذهابها وأوبتها من البئر ، محملة بالمياه الصافية الباردة، وقد توارت تحت حوافرها

السكك الترابية، لما نبت عليها من حوذان وقذاح وريحان وبوعثران.

وحول خيام النجع، تنهق وتجرى، وتتمرغ حتى تتلاقى، فتهمد، مع المساء، مسترخية فى مرابطها..

ويتجلى القمر فوق غبش المساء، وتنتثر حوله النجوم، فترتفع أغانى رعاة الأغنام من فوق الروابى، وهم ينحدرون، فيما الوديان تردد أنينهم الباكى، وضحكاتهم المرحة. فإذا خالطوا النجع، تمردت الحملان البيضاء، وفرت من بين أيدى النساء، والأطفال، لتلاقى ضروع أمهاتها تمتص الحليب بشراهة وهنهنة مسموعة ، ومع ذلك يستخلص النجع حصته من اللبن، فترتفع ألسنة النيران، ويفوح دخان الحطب برائحة الرمث والمثنان، ويتوضأ اشجيليف ليعفر جبينه بالتراب الطيب.

هذه الحياة التى يعرفها وما بعدها..ـ «ما هناك حياة.. »ـ

يؤكد لجاره، بو المالكى ويقضى الساعات والأيام خلف جدار بيته هذا، يدخن ما تيسر له من لفافات التبغ، ويحسب.. هل يرحل ليبحث عن عمل فى المحاجر الجديدة جنوبى العامرية، أو يتحمل أصوات العمال فى محاجر برج العرب، وهم يصيحون به :

ـ «شايب، ما فيك حيل.. عطلت الشغل وتريد قروش!!»

فإذا لم يذهب لا إلى هنا، ولا إلى هناك، فما العمل؟

ويدرك بو المالكي ضيق صاحبه ، فينسى بجواره علبة سجائره متعمدا، ويمضى لشاحنته.

ويظل اشجيليف قابعا لا يتحرك فيه غير أصابع يده، تنقل لفافة التبغ ما بين فمه وركبته البارزة، تصوصو فوق رأسه، من ميزاب البيت طيور الزرزور، وكأنها محبوسة، وتغرب على الآفاق البعيدة المخيفة شمس اليوم.

وتتجلل الروابى والسهول الجرداء والبيوت الحجرية بغبش الليل.. تتراجع أصوات الأطفال والنساء، وتداعب النسمات الباردة وجهه، وتمسح على يديه تهدهده، ويعقبها، دائما، صوت سوارم - زوجته ، من النافذة.

- «يللا لمرقدك.. فراشك جاهز..» وتهز صمت البيت بأقدامها الثقيلة متنقلة من دار لدار، فتفزع الطيور فوقه ويسمع بكاء طفل بالداخل وهى تهدده بالعفاريت، إن لم ينم فى الحال، فيزداد البكاء حدة، ويستيقظ طفل آخر فيسأل عن العفاريت باكيا ثم يرفع الباقون رؤوسهم من تحت الأغطية، ويتحول البيت وراء ظهر اشجيليف، لمناحة جماعية تمزق الكبد..

.. وبعد ما تهدأ جدران البيت، وأرضيته، يتطلع اشجيليف للقمر والنجوم، يغمره الحزن . يتنهد ويمسح وجهه براحة يده ويستغفر الله.. ويلتفت لمنزل جاره، وشاحنته ، ويصيح :

ـ «يا بو المالكي.. وين رحت؟ سجايرك هنا!» ـ

ـ «توا إنجيك..» ـ ويرسل ولده الكبير، المالكي، ببراد الشاي، والفول السوداني الساخن، حتي يعقبه بعدما يطمئن على محرك الشاحنة، بخطواته الواسعة متهللا. وهو نادرا ما يحدث، لاعنا، مع ذلك، الدنيا بما فيها، شادا ذراع ابنه، ليجلسه بجواره..

ـ «ها ، يا شجلوف.. فيش تفكر؟!» ـ

وأحيانا، يغفو المالكي تحت ذراع أبيه، ويستيقظ بعد ساعة على صوت حطب جاف يتكسر. إنه إشجيليف ! يحكي :

« .. هذيك السنة، شنقوا . إسرافيل وأصحابه..!» ـ

من إسرافيل؟ ومن أصحابه؟ هذا ما لم يعرفه المالكي إلا بعد وقت طويل، وطلب من اشجيليف أن يعيد عليه القصة مرة أخرى عندما التقى به في ميناء بنغازي.. وجهه ملطخ بالطحين، وجسده يتهاوى على الأرض، حيث أصبح المالكي رجلا ، يمد ذراعه ليسنده!

.. في هذه الليلة، بعدما نضب الفول السوداني، وفرغ براد الشاي، بدأ والده يوبخ اشجيليف وظن المالكي، للوهلة الأولى، أن أباه يشكو لنفسه شقاءه مع شاحنته.

ـ «غير حياتك يا راجل.. غيرها، وانفض الزفت هذا عن راسك. ما هو عشان روحك، لا، عشان عويلك، بناتك.. لك كم سنة؟ انظر.. عمر بحاله، غربت، شرقت. وايش درت.. لا شيء . قاعد هنا.. تريد

تكمل عمرك قاعد ترجي.. ترجى فيش..؟!» ـ

ويواصل بو المالكي، واشجيليف والمالكى ينصتان فى وجل، حتى تزداد لهجته حدة :

«والدنيا واسعة.. رابط روحك هنا..؟! هج... غرب..» ـ

ويحدث، فى أيام أخرى، أن ينقطع بو المالكى عن زيارة جاره، وتنقطع سجائره، وتبدو شاحنته أمام البيت، بيته، وهو يدور حولها حائرا، نافد الصبر ، وكأنه ما عرف شجلوف ـ صاحبه، يوما، ولاحكى معه.!

ويفر، أيضا، أولاده من قدام وجهه، تدفعهم أمهم ، فينحدرون مع أطفال الجيران، إلى جانب الوادى .: خلف الرابية، ويقضون النهار بطوله يلهون على حافة البئر القديمة المهجورة، وفى المساء يتحلق تلاميذ الكتاب.. المالكى ونوارة وسويد وشويقى حول اشجيليف.

«وايش عطاكم الشيخ ، اليوم.. ايش كتبتوا وايش حفظتوا.؟ ـ

وكان ، كطفل ، فى عمرهم، ينطلق يحكى لهم كيف سيصبحون بعد عشرين سنة :

ـ «ونا مريض، ياخدونى للدكتورة نوارة، تعالجنى» ـ

فقد جعل نوارة طبيبة، كما مد عمره، ربما دون أن يدرك لتسعين سنة، ليصل، بحسابه هذا، لعيادتها!!

ـ «..والمالكى، مهندس سيارات! » ـ يضيف مؤكدا:

ـ «عشان يصلح عربية بوه..»ـ

أما شويقى، ولأنه ينعس دائما، فموظف حكومى محترم، وسويد شيخ يعلم الأولاد، ويبرز لهم أسنانه البيضاء، بدلا من الاسنان الخضراء.. الموجودة الآن فى الخص القبلى..

ويضحكون ، ويضحك اشجيليف ويعلو صوته فى المساء، ويعلو صوت سوارم من نافذة الدار :

ـ«يللا .. ارقد...»ـ

لا يلتفت إليها.. ويسرح معهم فى عوالم غريبة، قادمة، وربما عاشوها هم بأنفسهم، معه، بطريقتهم الخاصة، وتصوروا، بعقولهم، وخيالاتهم المجنحة، نوارة وفى يدها حقنة كبيرة، تخيف بها والدها.. وهو يصرخ ويرفض :

ـ«لا ، ما تعطونى حقنة، ما اريد حقنة.. خلاص .. حرمت ..»ـ

والمالكى، فى ملابس ملطخة بزيوت شاحنة أبيه وشحومها، يصيح وهو ممدد تحت محركها ، زاعقا فى أخيه ـ «المفتاح الكبير.. الكبير خالص..» ـ وبينما أخوه تائه بين كومة المفاتيح والمفكات والزراديات، يواصل هو صراخه من تحت الشاحنة!

ولم تتضح صورة شويقى موظف الحكومة الناعس ـ فى أذهانهم ، ومع هذا ظنوا أنه سيصبح شيئا خطيرا أهم منهم جميعا.. له سلطة على الدكتورة ـ نوارة، والميكانيكى ـ المالكى ، والضابط ـ

سويد.. وربما اعتقدوا أنها ستكون إلى جانب ذلك، سلطة ناعسة!

وأخذ سويد يقلد دور ضابط حقيقي، ويأمر ـ «نوبدون... نو كمل ... نو شيب.. إتس دانجرس..»

ونهره اشجيليف ـ «عطاك الله دعوة تاخذك.. أريدك تكون ضابط مصرى.. ما نجليزى.. تطردنا .. وتسرق بهايمنا!!» ـ

وانخرطوا فى ضجة ضاحكة من جديد..

.. اندهش المالكي من نفسه، وهو فى غرفة الحبس وحده، بعد تلك الليلة بعشر سنوات، وجمع المزق المتناثرة لإشجيليف، أجلسه أمامه، وبكى عليه بين جدران السجن الصلدة الصماء الباردة!

كان اشجيليف يسأل :

ـ «نحن ، أولاد علي، منين.؟» ـ

ويجيب نفسه!!

(٨)

.. تناهى صوت الحارس من بعيد، واختفى. حل الصمت، وبدأ الليل يخطو فى رحلته الأبدية.. والمالكى ينتظر.. أما طيف وجه إشجيليف، فارتسم على حائط السجن، أمامه، ملطخا بالطحين، غاضبا..

وبدأ بعقار الشريف، الذى جاء من مكة قبل ستمائة سنة، باحثا عن الربيع، مثله، ويسرح وراء جماله وخيوله وأغنامه ومعيزه، حتى وصل الجبل الأخضر، فبسط سلطانه .. وتزوج وأنجب ثلاثة هم على وحرب وخديجة .. وبعدها، حين جفت الروابى، مات، فتخاصم أولاده، كل منهم يريد أن يتزعم العائلة، والعائلات المجاورة.

لكن عليا كان شاطرا.. تشجع وتقدم، حائزا الوطن، كل وطن فيه ربيع وآبار، حازه..

وهكذا مرت الأعوام، العائلات كبرت وكثرت، بعدما تزوج على اثنتين، ورزق ولدا واحدا كانت له سنة فى فمه عجيب شكلها، وبعد وفاته بشهر ولدت زوجته الأولى، سعدة الحمراء عليا جديدا وأضافوا على اسمه كلمة الأحمر، نسبة لأمه، لأن الزوجة الثانية سعدة البيضاء ولدت، هى الأخرى، عليا آخر، عقبها بأسابيع وأضيف لاسمه كلمة الأبيض!

هذا كان من زمان.. زمان بعيد.

ومن على الأبيض جاءت قبائل أولاد خروف والعزايم والصناقرة والأفراد..

ومن على الأحمر، قبائل القناشات والعشيبات والكميلات.

ومن أبى سنينة، الأخ الكبير، جاءت قبائل العراوة والقطيفة، والمحافيظ والعجنة.

لكن لا أحد ينسى، يؤكد اشجيليف، ويتساءل، وماذا حدث، أحفاد حرب أصبحوا قبائل، قبائل لا تنسى خصومتها لقبائل أولاد على، فأينما تخضر الأرض، وتكثر المراعى، وتمتلىء الآبار، يتقاتلون، ولم تكن هناك ألغام آنذاك، ولا بارود، كانت السيوف والرماح.

الرجال يتساقطون.. وكذلك الخيول والجمال.. تقطع النساء خدودهن، ولا يصبح الصبح إلا بقتال جديد.

سنوات وراءها سنوات.. حتى سقط عبد المولى الحرباوى - زعيم الحرابى، مقتولا، وجاء بعده ولده - حبيب .. حبيب بن عبد المولى، ليتحالف مع الوالى التركى، وإلى طرابلس، ويقدم له هدية تحدث عنها المشرق والمغرب:

جلد رقبة نعامة مملوءة بالذهب والياقوت والزمرد.. فصادقه الوالى، وساعده بأن جعله قائدا على ستة آلاف جندى. منهم، تسعمائة من الخيالة، بالإضافة لفرسان الحرابى، لينتقموا من أولاد على.. بعد

كل ما مر من أيام وليال.. انطلقوا، وكان حبيب يشير بسيفه - «عليهم.!» - فترى الفرسان والجنود كالسيل الجارف. أزاحهم من أمامه، وطاردهم، فهرست أقدام النوق والخيل ، الأطفال والحملان والقدور وكذلك العجائز والمرضى والملوثين بالدم من طعن سيوف الحرابى ورماحهم.. فلجأ أولاد على للصلح، وباتت السلوم الحد الفاصل لهم عن قوات حبيب المحمومة هذا خبر قديم، من زمان يا مالكى.. زمان بعيد.. يا عويل!

ويسرح اشجيليف، وهم يتحلقون حوله، المالكى ونوارة وسويد وشويقى، فوق الصحارى والروابى، والربيع والجدب، والحمير والنجوع.. فتصيح سوارم من النافذة - «مرقدك جاهز..» -

- «باهى..» - يجيبها مستطلعا وجوه الأطفال الصغيرة..

ابنته وقد مال رأسها إلى جانب، وعقدت ذراعيها على صدرها ، بينما جسدها ينتفض من البرد، وابن جاره، بعينيه الواسعتين ورأسه الثابت فوق كتفيه بلا حراك، وسويد وقد ارتسمت الدهشة على وجهه، وشويقى الذى أراح رأسه على جدار البيت، ونام واستيقظ مذعورا على صوت صاحبة البيت!

واللحظة، تخيل المالكى، صوت سوارم خلف قضبان النافذة الحديدية لغرفة الحبس آمراً - «مرقدك جاهز! » -

(٩)

ـ «.. وشويقى يا لاوى(٢٦).، فينا.

قطر اطناش(٢٧) اجهزنا له.

وركبنا ، يا اختى، جملية(٢٨).

وركبنا فيه، ومليان،

موالك(٢٩)، وشتور(٣٠) وقطعان(٣١).

بريق الضوء، شع صباحا، فأفعم قلب المالكى بشذى الأزاهير وأريجها ـ كانت طيور بوحوام تحلق أعلى مظلة محطة القطار الخاوية، تدور دورة كاملة ، تصيح بصوت مخنوق :

ـ «خراب.. خراب...» ـ

وربما لهذا السبب أسرع المالكى وألقى بجسده بين عمودين متقاربين من الخرسانة المسلحة. سد أذنيه ، لكن الصوت ما انقطع ينخر صدره ـ «واق .. واق.. خراب .. خراب..» ـ

هل يعود ؟ لماذا تأخر سويد، وشويقى؟ هذه المحطة لا يوجد بها إنسان واحد. ربما مهجورة.

قد تكون هناك محطة أخرى، فى مكان ما، لا يعرفه، لاشك انها الآن تضج بالحركة وصفير القاطرات، يجدان فى البحث عن رأسه من بين رؤوس المسافرين!

عندما تطل نوارة ، يتسع أمامه عالم فسيح ، يهب فيه النسيم

الرطب على رؤوس الأقحوان، يمسحها فترتعش تيجانها الصفر خفرا!

حينئذ تحوم طيور الزرزور، تحط وتطير على عجل.. بينما الفراشات الملونة، وأبو دقيق تتنقّل من عود ريحان لآخر، بكسل وفراغ بال!

كانت قضبان السكة الحديد تمتد وتختفي من الجهتين، في الضباب الأبيض، وأمامه، مباشرة على الجانب الآخر، برز ناظر المحطة، فجأة، وقد لف حول عنقه منشفة، وكان يقبض على قطعة صابون بيد، ويحرك سيجارة مشتعلة بين أصابع اليد الأخرى، وبدا كأنه خرج، لتوه، من حفرة. اجتاز القضبان، وهو نصف نائم وشعره الطويل مبعثر على حاجبيه وأذنيه. نظر إلى المالكي مرتين، وكأنه في الأولى لم يره جيدا، قبل أن يختفي في الجانب الآخر، داخل المبنى.

عندما جاء فصل الربيع هذا العام، لم يشعر به أحد. اخضرت الأرض اخضرارا باهتا، وخرجت الورود من شقوق الأرض المحروثة صغيرة لا تقوى على النهوض. وحالما انطفأت ابتسامة الروابي والسهوب.

ماتت حبوب الشعير تحت الثرى. خرجت أوراقها الخضر، وهفهفت تحت الريح جذلى، وكان طولها لا يتعدى طول السبابة، قبل

أن تتصلب، وتلفظ أنفاسها الأخيرة!

وأعقبه الصيف، نهض مبكرا (بجبينه الأسمر المحروق - كما يصفه اشجيليف)، ومكث هنا وقتا مديدا. من قبل شهر آيار، وما بعد شهر أيلول. وماتت نعجات بيت بو المالكي. الأولى ماتت وهي تلد، والثانية ماتت لأنها أكلت أكياس (نايلون) والثالثة ماتت في الليل وحدها!

وطغى الحزن على بو المالكي، يعبر عنه عويل محرك شاحنته، في الصباح وفي الليل يئن المحرك ويصرخ، بعد صمت وسبات فتهتز الشاحنة برمتها ، كأنها تبكي.

هكذا إذن، امتلأت بئر إشجيليف المهجورة (وتقع على بعد كيلو متر جنوبي الرابية) بجثث الخراف والماعز. وكل صباح يتحلق الأطفال حول فتحة البئر الشوهاء، وتشير الأصابع الغضة إلى قعر البئر.

- «هذيك عنزنا..» -

- «والله رايت راس نعجتنا ، وفمها مفتوح ولسانها طالع برة..» -

- «هذاك جدي أمي، يا حميدة، انظر هناك، عيونه بيض وراسه صغير، انظر عشان تصدقني..»

وعندما جاء الخريف، جاء من الجنوب على غير توقع. شمر أردانه، وأثار بألف ذراع تراب الجنوب الحار، وسفّاه على رؤوس الناس، وعلى جدران بيوتهم. وتعطلت شاحنة بو المالكي . أضبحت تحت العجاج كأنها مهملة، هنا، من عشر سنين!

وقضى اشجيليف أيامه بلا عمل. كان يمضغ الخبز الجاف، ويمضغ معه تراب الخريف، ويتحسس ما تبقى من لفافات التبغ ، ويلتف حوله الأولاد.. المالكى ونوارة وسويد وشويقى فلا يحكى لهم من حكاياته شيئا، فينصرفون صامتين، واحدا وراء الآخر!

يحدث أن تهمد الريح مرة واحدة، يكون ذلك، غالبا، وقت العصر، فيرسو التراب الناعم الأصفر مشكلا سككا طويلة متعرجة، ملساء وناعمة.

ويطل وجه الصيف مدة يوم أو يومين، بعد ذلك، كأنه لا يريد الرحيل، تستكين الريح وترى دخان فرن سوارم، وهى تخبز عقب النهار، يتحلق فوق رأسها فى سحابة كثيفة ثقيلة ، لا تتحرك، أو يجف عرق وجهها الملتهب!

صباح اليوم، انقشع الضباب. مرت ساعتان، والمالكى ينتظر تحت المظلة.

اختفى ناظر المحطة بمنشفته وشعره المهوش. وظن المالكى، لوهلة، أنه ربما صاح ، عندما نظر إليه فى المرة الثانية، وقطعة الصابون فى يده، زاعقا وقد خرج من الحفرة ـ «خراب.. خراب..» ـ مثل طيور بوحوام!

كانت المحطة تردد ذات النشيد ـ فلنكات ملقاة جانبا يأكلها الانتظار. فردة حذاء جندى مغروسة فى الرمل.

جثة كلب منتفخة، وفخذه معلقة فى الهواء، كأنه يتبول ، وهو راقد على جنبه! وبعد خمسين خطوة، عربة قطار بلا نوافذ، مفغورة الفم من الأمام، والصدأ يلفها. عجلاتها الحديدية يغطيها التراب. على جانبها كتابة إنجليزية باهتة - ..MILI.. Y.F - وبجوار الباب الأمامى أرقام 50021.B كأنها متخلفة عن الحرب عام ١٩٤٥. قد تكون طائرة ألمانية هوت عليها من السماء. أما وراء ذلك، فالصحراء، بساط أجرد إلى النهاية..

ارتفعت شمس الضحى، وتعلت.

دخل المحطة رجل قصير ينوء بحمل خرج كبير. وراءه ثلاثة أطفال، بنتان وولد، حفاة. جلس فوق الخرج وأنشأ يلف سيجارة . تحلق حوله أطفاله، وعيونهم على أصابعه البنية.

بعدها، رأى المالكى ثلاثة آخرين، يقطعون رصيف المحطة جيئة وذهابا، ويتحدثون بصوت خفيض، وثيابهم تصدر حفيفا مريبا!!

ثم كثر اللغط عقب ذلك، عشرات الأرجل والأذرع تتحرك داخل خليط ثياب بيضاء وصفراء وربداء. صدارى سوداء. جرود صوفية. أردية ملونة. عليها، جميعا، مسحة من القدم، والتهتك ، كأنهم يرتدونها، ويقفون بها تحت الشمس، منذ خمس سنوات!

صوت مشروخ كان يصعد من وسط الهمهمة واللغط، ويحوم فوق الرؤوس - «.. اسمعوا يا ولاد على ... ناعمدة الصحرا، عمدتكم ،

حاربت النجليز والجرمان ، والألغام قتلت وليدى، وقطعت يدى، وخذت معيزى هو كله..

وتوا، عطونى خبزة وسيجارة.. اريد خبزة وسيجارة..» - ويردد المقاطع ذاتها، بنفس الترتيب، عقب كل نوبة ضحك.

رنت قهقهة شويقى فى أذنى المالكى. وجده أمامه ، فتلقفه بين يديه. حالما انضم إليهما سويد. وبدأ المالكى - «كنكم توخرتوا.؟» - وتأخر القطار أيضا. موعده فى الثانية عشرة. جاء بعدها بساعة

ـ«حسبته يجى فى الصبح..» -

قال المالكى، وهو يتحسس كفه.. ملمس أصابع نوارة..

تردد صوت الحذاء الثقيل، يخطو برتابة، على ممر عنبر السجن. ومن الجردل القذر، داخل زنزانته، تفوح رائحة نتنة.

الجدران تتفصد رطوبة، والليل طويل..

(١٠)

.. بعدما نزح شويقى وسويد للعامرية، رفقة أسرتيهما، وأثاثات بيتيهما المتواضعة، والتى لا تزيد عن بعض من البطاطين المهترئة، والأكلمة اليدوية القديمة، المنسوجة من صوف الأغنام، وبعض الأطباق والقدور، بعدها انقطعا عن خص الشيخ، وعن جلسة اشجيليف.

بدأ المالكى، أول الأمر، يقطع الوقت بالسير طوال النهار، من مطلعه ، من حافة الوادى والرابية، فالبئر المهجورة.. ثم السهل الأجرد المنبسط إلى مالا نهاية.. حتى يهده التعب، فيعود للبيت بعد غروب الشمس لينام.

وفى الأيام التى يتواجد فيها والده بو المالكى، ويكون رائق البال يصفر ويربت على محرك شاحنته، وعلى كتف ولده الكبير - الملكى ذاته .. ويقول له :

- «خذ شاهى وسودانى، واسبقنى على سيدك اشجيليف..» - عندها ترتجف اوصال المالكى، ويسرع داخل البيت لتجهز أمه الشاى والفول السودانى.. يستحثها متعجلا، ثم ، بعد هنيهة، وبمجرد جلوسه جوارها، تنطفىء لديه الرغبة فى الذهاب لبيت نوارة!

وتلح أمه، فيحمل الطبق والفناجين وبراد الشاى، ويضعها أمام اشجيليف ووالده، الذى سبقه إلى هناك، ويتركهما إلى الرابية.

ـ«وين ماشي.؟» يسأله أبوه.

ـ «هنا ..» ـ يجيبه ويمضي.

واشجيليف يعلم ما أصاب المالكي، أو هو يعتقد ذلك، لأنه في كل مرة، عندما تحدث مثل هذه الأمور يشير.

ـ «الولد كبر ..» ـ

وبو المالكي، الذي كان يرد عليه في السابق بكلمتين ـ «.. والبنت كبرت..» ـ أصبح اليوم، إذ رأى نوارة تكبر حقيقة، يكتفي بالصمت، وأحيانا يزيد بـ ـ «هم مم» ـ

والمالكي ذاته، أدرك، وصدق، بعدما كان يكذب ظنونه، أن نوارة ليست تلك البنت الباكية المطرودة من خص الشيخ كل صباح . فقد ازدادت طولا، ومرحا وخفة حركة.. نشيطة، لها وجه مدور لم يعرفه من قبل، وصوت رخيم خافت، لكنه يسمعه من بعيد، فيهز قلبه ويثيره، وعندما تراه هي، لاتستقر يداها ولا خطواتها ترتبك وتفر من أمامه.

كأنها تخافه!

هذا ما أثقل صدر المالكي، وأحزنه ودفعه لاعتزال البيوت لمقعده الحجري على رأس الرابية، فيسترد طلبها وصوتها يتهدج منتحبة :

ـ «عطيني قطعة من فحمتك..» ـ

ويأخذ يدها ويريها الطريق الخالي من الشوك، إلى خص الشيخ ،

بينما سويد وشويقي يقذفان الحصى على الطيور الشاردة، أمامهما..

وعيناها، عندما صافحتا عينيه، تحت ندى الصباح، وهو في طريقه لمحطة القطار، وأصابعها بين أصابعه، وجسدها يرتعد أمام جسده، كانتا هما العينيْن الواسعتيْن اللتيْن تملأهما الدموع وتبلل قطعة الفحم السوداء في يدها وحينما يتطلع إليهما ، على جدار غرفة الحبس، يختلط عليه الأمر، ففيهما كمد، وحزن، وانطفاء..

ثم يكتشف أنهما عينا اشجيليف ذاته - والدها .. كأنه يريد أن يقول له شيئا مهما، ويبدو خلالها أن اشجيليف يعرف سندال كرتة وربيعة، والمخبرين، والعزبة، وقدر البطاطس، والعمدة الذي يصيح على محطة القطار.

- «يا ولاد علي، تا حاربت النجليز والجرمان.. وتوا ، عطوني خبزة وسيجارة..» -

وكأنه يعرف، فوق ذلك، مصير سويد وشويقي، والمنياوية وبو الدبوسي - سائق المازدا الصفراء - وشتائم الحرس والضابط المهم الذي يمر كل شهر على عنابر السجن ويكتفي بـ «اتفوو.. » - على الوجوه البدوية المذعورة.!

- «نحن أولاد علي، منين.؟! » -

يسأل اشجيليف بينما وجهه تغطيه طبقة بيضاء من الطحين والعرق على جدران غرفة الحبس.

ويتعجب المالكى، لإصراره ، وهو يعرف أنه، أى المالكى، من قبيلة المـوالك، المرابطين، أصدقاء، قبائل أولاد على، وحلفائهم فقط، وليس من سلالتهم، إلا أن اشجيليف يصر، ويجمعه مع أولاد على، بل ويصـهـره مـعهم.. ويخلط دمه بدمائهم .. كما فعلت السيوف والرمـاح، والبنادق والبارود، وسنوات الجدب والمحـول والعطش والترحال، وسنوات الخير والربيع والحملان وجرون الزرع..

أما قبيلة الجميعات، فهى ذرية خديجة، أخت علي الأب، بنت عقار الشريف.

واستقر أولاد على مع الجميعات شرق السلوم، وغرب الإسكندرية والبحيرة.. وأصبح ربيعهم فى هذه الصحراء.. لا يتجاوزونها ، فيها آبارهم وأغنامهم ونجوعهم، وتمر عبرها قوافلهم.. وكان جيرانهم، فى البحيرة، من قبيلة الهنادى، وهؤلاء قتلوا جملا لأولاد على على حدود النوبارية، فنشبت حرب جديدة، أيام الترك، استمرت ، فى البداية، ثلاثة أيام بلياليها، فطلب الهنادى من جانب ، وأولاد على والجميعات من الجانب الآخر، الهدنة لدفن قتلاهم، والتزود بقسط من مياه الشرب، وبقطع من الخبز والقديد، ليشدوا سواعدهم من جديد، وليسقطوا هامات وأطراف بعضهم بعضا .

هذا كان من زمان .. زمان بعيد.. يا مالكى!

هكذا يتردد صوت اشجيليف، قويا، ثم يخفت ويتلاشى، مثل رنة وتر مشدود على حائط غرفة الحبس.

ثلاثة أشهر، والحرب تأكل الرجال، وتمزق أحشاء النساء، وتشيب رؤوس الأطفال، انسحب ، بعدها الهنادى لمُديرية الشرقية.

وطوال ثلاث سنوات، أيام محمد على باشا، والهنادى يشنون الغارات ، وأولاد على يصدونهم.. ستة وثلاثون شهرا، والدم يسيل وكلهم عرب ، يامالكى.. أخوة.. لكن هذا ما صار ، وما حدث!

وفى سنة ١٩١٥م ، فى كانون الثانى، وسماء سيدى برانى ملبدة بالغيوم، والوديان ريانة بماء المطر، كان اشجيليف يغرز عصاه فى الأرض، ويخمن إلى أى حد سيكون الربيع غنيا، فيما كلبه يهز ذيله، وقطيع الأغنام يثير التراب بأظلافه، ويمضغ ويزفر ويهمهم راضيا.. ويحدق اشجيليف فى وجوه الأطفال حوله، المالكى، ونوارة، وسويد وشويقى، ويضيف..

- «كان المزن أسود. وقلت هذا ما هو مزن مطر.!» -

فالسنوسيون كانوا قد احتلوا مدينة مرسى مطروح، ونشروا زواياهم الدينية فى برانى والنجيلة والشولحى، وحتى واحة سيوة فى الجنوب.

واشجيليف، وهو يسوق أغنامه بين الوديان والروابى والسهوب

اللانهائية، يسمع الرعاة يتناقلون الأخبار، ويبتعدون عن مواقع الخطر. وعندما تطلع اشجيليف للسماء مرة أخرى، وجدها مسودة مخيفة عرف أن - «السنوسية قطعوا خط سكة حديد مربوط، والنجليز يجهزون لهم فى نار حامية..» -

بعد ذلك بشهرين، أي فى آذار، نبح كلبه قبلما تدوى مدافع الإنجليز فوق رأسه، فامتطى صهوة جواده دافعا قطيعه وقطيع نجعه، نحو الجنوب.

وكان الرعاة الآخرون، يتعثرون فى أغنامهم الكسلى، فيضربونها دافعين مؤخراتها أمامهم بأيديهم وعصيهم . لكن كل ذلك كان بلا جدوى، فالإنجليز ، وقد دمروا جنود وحصون السنوسية فى منطقة المقتلة ثم فى الزويدة، على بعد ١٤ ميلا جنوبى برانى، وجدوا بجوارهم أكثر من ثلاثة آلاف رأس من الأغنام، وأعدادا لا حصر لها من الخيول والجمال الفارة من القصف والعصف، وما يزيد على مائة من الرعاة، حيث أسروهم ، على الفور، وصادروا أملاكهم وأملاك أهلهم، وكان الأسير اشجيليف من نصيب مستر فاجنر - أحد ضباط دوق وست منستر، قائد الحملة الإنجليزية على الصحراء الغربية:

وبقيت القوات الأساسية لتأمين المنطقة وزرع حقول السلوم بالألغام، وغرس صف لا نهائى من أنواع مختلفة منها على طول

الهضبة.. من البحر، حتى الجنوب البعيد المتماوج تحت السراب.

ومضى إشجيليف مع القوات الاحتياطية رفقة مستر فاجنر إلى الشرق. وكانت مهمتها أثناء أوبتها، وإلى جانب مصادرة الجمال والخيول والأغنام من النجوع والمراعى، والاستيلاء على الدجاج والحملان من خن الديوك والحظائر، كانت مهمتها مع ذلك، إجلاء سكان الصحراء البدو، أبناء القبائل، إلى العامرية والبحيرة والإسكندرية.

وكان فاجنر، إذ يجد اشجيليف متبرما من خدمته، يؤكد :

- «نو بدون هير.. إتس دانجرس..» ويغريه بتدخين سيجارة..

أما طائر بوحوام، فينشر جناحيه تحت السماء، فى غير أوانه، ليصيح :

- خراااب ... خراااب..»-

(١١)

- «وتقول اذبح هالربعية(٣٢).

.. ..

قول ذبحناها ، وكلينا،

وشربنا حتى شاهينا.

تمت عشوة فنطازية.» -

دق سيد بوجبيرين ثلاث دقات بقبضته، فاهتز الباب، وكاد ينفتح وحده.. ألقى نظرة وراءه. المالكي ينفض غبار السفر عن ثوبه. شويقى يسوى (ضمادته) حول رأسه.

فعاود الطرق - «يا خالتى ربيعة.. نا سويد.. سويد بوجبيرين..» -

كانت ربيعة تربط الجديان (٣٣)، وحدها، داخل الزريبة، لتحفظ الحليب فى ضروع العنزات حتى الصباح.

انقطعت أخبار زوجها عنها قبل ثلاث سنوات. ذهب، حينذاك، إلى السلوم، ولم يعد. ومع أنها سمعت أنباء شتى، تفيد مقتله على الحدود، لكنها ظلت صلبة وقوية.. بيتها مرتب. تدبر شئونها وحدها تستقبل الزوار والضيوف، كأن صاحب البيت فى مشوار قريب، وسيعود حالا..

ودعت الشمس نهارا حارا.

خلفت وراءها بقعا حمراء ولفعت السحب القليلة المتناثرة على صفحة السماء من جهة الغرب. اسودت هذه السحب بعد قليل، ولف الظلام مدينة مرسى مطروح.

- «انشدوا (٣٤) عنه كويس.. في إمساعد.. في طبرق.. إن كان لقيتوه متزوج، قولوا له ربيعة ما تريد لك غير الخير..» -

- «وأى متي غرب؟» -

سألها المالكي.. فتأخرت إجابتها. ران الصمت، واهتزت ذبالة المصباح فارتعشت ظلال أجسادهم على الجدران..

دارت الريح تحت النافذة، من الخارج. شموا أنفاسها الباردة المشبعة بطعم البحر.

ارتفع صوتها الغاضب، وهي تضرب العلب الفارغة والورق وتهز مصراع الشباك. تئن وتشهق بعنادٍ متواصل!

ارتجفت أوصال المالكي.

انقبض قلبه، انبسط فجأة.

ثم انقبض مرة أخرى ووجف كأنه ينازع.

لم يفكر طيلة اليوم، مذ تحركت به عربة القطار المغبرة العتيقة إلا في مدينة مرسى مطروح، كيف تكون.. وهاهو، قد شهد شوارعها الطويلة المجللة بالسواد، والتراب.

ركب فيها (الكارتة) . اخترق زحام سوق الخضر، وتوقف عدة مرات أمام واجهات الدكاكين الزجاجية، الكابية، والتى تفيض بالوجد والانتظار، وقد طفحت من الوجوه القانطة للباعة، وهم ينتظرون..

بين المالكى وبين نوارة، الرابية، شاحنة أبيه، الآن، ثلاثمائة كيلو متر.

مئات النجوع الراقدة تحت الهضاب السوداء الممتدة جنوبى الخط الأسود لقضبان السكة الحديدية، وعشرات المحطات الكئيبة. أخذ يعيد حساباته من جديد. لماذا وافق على السفر إلى السلوم؟ العمل فى التهريب؟ هل سويد وشويقى هما اللذان اقنعاه؟ ثم ماذا يعرف هو عن السلوم، الهضبة؟ المزروعة بالألغام والحصى الأسود؟!

بل ماذا يعرف غير الرابية، ونوارة، وشاحنة أبيه.. بو المالكى؟

ربما كان القرار قد تولد وهو بعد يردد وراءالشيخ آيات (أم الحمد) قبل تسع سنين. كان يحدث ذلك صباح كل يوم: ثمة خص يبعد عن الرابية قليلا، يقع على جانب المنحدر من الجهة الأخرى. تخطو أقدامهم الصغيرة، نحوه، يخزها الشوك، تحت آباطهم ألواح خشبية مسودة فى جيوبهم الفحم، لا شىءآخر يحملونه معهم.

كانت نوارة طفلة، تمشى وراءالجمع، وتبكى ، حافية، أيضا. يظنونها تتألم من الشوك العالق فى قدميها. المالكى يتخلف عنهم، حتى يحاذى جسمها الصغير، ويسألها ـ «كنك(٣٥)؟،» ـ لا ترد .

تكتم صوتها . تنشج وتنتفض. يهز ذراعها ـ «والنبى كنك؟» ـ

هنا تبكى بوضوح، بصوت مسموع. هذه إجابتها!

كانوا جميعا يخشون الشيخ. وهى تخشاه بطريقتها الخاصة. لم يشتر لها أحد (جزء عم)

ولم تجد لوحا خشبيا مثل ألواحهم المستطيلة . تحمل معها قطعة خشب مشوهة، وفحمه بللتها الدموع.

للشيخ لهجة غريبة، يصيح. يفتح عينه الوحيدة على اتساعها من فمه يظهر صف من الأسنان الخضراء، وتملأ رائحته العطنة الخص الصغير ـ حجرة الدرس!

ـ «فين البيض يا سيد، تكذب على؟ امش، إطلع برة..

لما ديوك أمك تبيض تعال..» ـ

ويتعثر سويد مجتازا باب الخص، مطرودا . ومن نفس الباب الواطىء، الذى يستقبل مربعا دافئا من شمس الصباح ، تخرج نوارة، ودائما، عندما تصل إلى عتبة الباب، تلقى نظرة رجاء ناحية الشيخ، قبلما يمتصها الضوء، يأتى دور المالكى بعدها . ـ «فين فلوس الشهر اللى فات .. والشهر اللى قبله.. هو أبوك بيشيل حاجات الناس ببلاش؟» ـ

ويردد الشيخ كلاما كثيرا ، لا يفهم منه المالكى سوى (بقى) و (كده) و (دهوووه)!

يلحقهم شويقى، وآخرون، ممن غضب عليهم الشيخ. لم يحفظ المالكى طوال تلك الشهور غير كلمتين - «عبس وتولى» -

وكان ينسخهما على لوحة بالفحم أمام أبيه فيرضى عنه من تحت جفينه الكليلين.

بهذا انقطعت نوارة عن الذهاب إلى الكتاب. ارتحل سويد وشويقى مع أهليهما إلى مدينة العامرية ربماتولد قرار الرحيل فى ذلك الوقت. حيث تفرق الجمع الصغير وردم التراب ما حفرته أقدامهم العارية فى ذهابهم وإيابهم.. مابين خص الشيخ وبيوتهم.

- «البيوت اللى بنيناها، قاعدة، لكن نحن على ايش نقعدوا .. ما هناك غير الشر..» -

هذا ما كانت تردده أم المالكى عندما تتجمع لديها النسوة، مساء سوارم، وجاراتها القريبات.

ويحدث ذلك عادة عندما يكون بو المالكى، زوجها ، فى سفر بعيد بشاحنته المريضة، واشجيليف يقطع الحجارة فى محجر بالعامرية، وينام هناك، ليعود بعد أسبوع بثمن التبغ!

فيتحرر الأطفال ، ويثيرون الهرج فى أرجاء حوش بو المالكى الغائب، أول الأمر.. ثم يتحلقون حول حكايات النسوة داخل (المربوعة) يلفهم الصمت والنعاس، وخيالاتهم تسرح فى الزمان البعيد، الذى تبسطه أم المالكى بصوتها الحالم أمام جاراتها!

نوارة أول من يتوسد ركبة أمه، وتنام. فى ليال كهذه، لا ينساها المالكى أبدا.. وجه نوارة الطفولى الناعس. رائحة الفول السودانى المحترق. رائحة النعناع.. وصوت أمه ـ «أفزعوا يا (شتور) افزعوا يا ولاد على.. الجرمان خذوا النعجات، وقتلوا خمسة.. وكنت نا صغيرة.. قد (٣٦) نوارة هذى.. نجرى ورا الجديان.. قدام الخيشة.. فى نجع هلنا. قبلى الزويدة من حذا بدانى..» ـ وتواصل أم المالكى بحماس ، فى أول الأمر ، ثم برتابة مستمرة، ورتابة موزونة، كأنها تحكى على إيقاع خطوات قافلة إبل!

هكذا.. منذ انقطع عن خص الشيخ، عرف المالكى أمه من جديد.

ثمة وحشة.. كل كلمة تقولها، فيها انكسار وفقد.. وصبر لا حد له. ومن بعدها لازم الرابية.. من هناك تمتد الأرض، تغيب الآفاق النائية.. وكم من يوم مر دون أن تبرز رؤوس الفرسان من فوق خيولهم، قادمة من هناك، من حكايات أمه عن أسواق برانى، ونجوع الزويدة وقطعان الضأن والإبل، ومواسم الربيع والحصاد.

من يشعل النار التى انطفأت.. ويبعث الحرارة فى حفر الرماد، موضع القدور. هل سمعت نوارة حكايات أمه، وأمها أم أن النعاس كان يغلبها .. ألا يتملكها الشوق للنجع، مرابط الخيول، ممراح الإبل، ورمة الخالفة(٣٧) وجابر(٣٨) الخيشة، صوت خض اللبن فى القرية ساعة الضحى، شاى العصر، الحمير فى أوبتها من البئر، محملة

بالمياه الباردة الصافية.. هذا الحياة زالت..

ردمها التراب، سفا عليها الخريف بغباره المتطاير ، ولفها تحت إبطه، ومضى.!

- « .. ونحن مغربين للسلوم، تقدر يا سويد تورينى الزويدة.. حذا براني..» -

كانت ربيعة تعد دورا جديدا من الشاى، سويد وشويقى يتشاوران فى أمر ما. لذلك نظر كلاهما تجاه المالكى باستغراب :

وسأله سويد - «وايش لك فى الزويدة؟ صحراء خالية، ما فيها غير العجاج، وألغام بوشويكة..» - لكن المالكى صمت.، وربما ردد لم يسمعه أحد - «صحرا خالية.. صحيح!» -

فجأة هبت ريح قوية باردة.

صفرت وضربت بشدة. عندما رفع المالكى رأسه من فوق ركبتيه، وجد حوله جدرانا كئيبة سوداء، والظلام يلفه.. داخل حجرة الحبس. كان صوت خطوات الحارس يتناهى من بعيد ضعيفاً تحت أنين الريح الباكي. انفرجت شفتاه بابتسامة. طاف من برج العرب(٣٩).. من حكايات اشجيليف، إلى مرسي مطروح، إلى حكايات ربيعة، بينما هو بين جدران محبسه، كل إنسان يحمل معه جناحين، إذا قيدته، حبسته، طار بهما إلى عوالمه الخاصة، فى أبعد مكان، فى أقصى زمان..

كان يجلس هكذا، ذراعاه يعصران ساقيه، وفخذاه على صدره، وركبتاه أمام وجهه، هو وجردل البول.

عندما استقر رأسه الثقيل، مجددا ، فوق ركبتيه، رفعت ربيعه رأسها - «اسألوا عنه، في إمساعد، في طبرق، إن كان لقيتوه متزوج، قولوا له ربيعة ما تريد لك غير الخير» - صوتها يشبه صوت أمه، تماما، ورنة من صدى نوارة عندما سألته صباح يوم الرحيل - «أى متى تجي؟» - رنة فقد.. أو انكسار.. رنة الانتظار.. الصبر الطويل..

ولم يتعب طائر بوحوام، يحلق فوق دار ربيعة، يزعق :

- «خراب.. خراب..» -

وهو يمزق بصياحه المكلوم حكايات ربيعة فى تلك الليلة ..

تصمت هي، حتى يتباعد النذير المشئوم! لتتم حديثها - «بسم الله العافى الشافى.. ايش طلع بوحوام فى الليل؟» -

هكذا يدور الخيال، يحلق ويحط على دار ربيعة، خالة سويد.. عندما صاح بوحوام، وهم يجتازون أزقة العزبة فى عقب النهار، بعدما غادروا القطار والغبار، والوجوه الذابلة.. هو سويد ذاته، من وقف وظلل على عينيه، وتابع طائر بوحوام بجناحيه العريضين :

أشار لهم - «يقول: الخريف جا والصيف راح..»

لكن المالكي عارضه - «لا .. يقول خراب .. خراب.. اسمع كويس.. تعرف!» - ووافقه شويقى، بل زاد فوق ذلك بأن عارض مواصلة

الرحيل.. إلى السلوم.. أنشأ يردد - «هذي رحلة شر من أولها» - وعرض عليهم، وقد توقف قبل أن يصلوا بيت ربيعة بثلاث خطوات ، أن يعودوا..

وأضاف - «اللي غرب، إما قطعته الألغام، أو حبسته الحكومة..» -

بيد أن سويد لم يعلق. كان الرعب في عينيه، في حركاته المضطربة.. وهو الآن يحدق في وجه خالته ربيعة..

يتتبع آثار زوجها الغائب.. وهي تروي وتحكي!

ربما، بعد شهر من هذه الليلة، جلست زوجته، وزوجة سويد ذاته، تقص على صويحباتها، الآن، بعدما انتهى كل شيء، عن عودته المنتظرة، عن عودة زوجها سويد ، والهدايا التي سيجلبها معه، البيت الجديد الذي سيبتنيه، الدكان الذي سيفتتحه، فيما هو يرقد تحت الثرى، جثة ممزقة، مفرومة اللحم، هناك، في مكان ما، في الصحراء، تطلع الشمس على قبزه، وتغرب دون أن تبعث في جسده المطمور حرارة أو حياة.. إلى الأبد..

فمن لم يخبر ربيعة بمصير رجلها.. سويد بوجبيرين؟!

(١٢)

- ..«وحق بريكة بوى وبوك،

وعيت إدمين،

وسيدى حسين،

حديث يطير نوم العين!» -

.. وجمع الانجلين، البدو حول العامرية ومريوط والحمام، بعدما محوا نفوذ السنوسية من الصحراء الغربية، وهدموا كل جدار فى زواياهم الدينية.

وانشأ الميجر براملى - مفتش قسم مريوط آنذاك، مدينة أطلق عليها، وهو ما لم يفهمه اشجيليف أبدا، برج العرب.. ومنها أدار الجنرال مونتجمرى العمليات الحربية غرب الإسكندرية عام ١٩٤٢م.

وكانت برج العرب زاوية دينية سنوسية كبيرة، لها مكانة عظيمة بين أبناء القبائل، لأهميتها التجارية ، فتجد حولها مناخ قوافل التمر والزيتون القادمة، وقد لوحتها الشمس، من واحة سيوة، ومناخ قوافل الشعير المريوطى والكروم، القادمة، وقد مسحها يود البحر، من سواحل مرسى مطروح وبرانى والنجيلة.

وازدهرت، هناك، تجارة الأكلمة اليدوية والسجاجيد الصوفية، فقام الميجر براملى، بعد هدم هذا المركز، ببناء منزل له، ضخم، بنفس الأحجار التى أسقطها من جدران الزوايا السنوسية.

وكان اشجيليف، الذى فقد والده ووالدته وأخوته فى سيدى برانى، ولا يعرف إذا ما كانوا قد هاجروا للبحيرة أو العامرية، أو الضبعة قد أجهده العمل من جديد فى تقطيع الأحجار والبناء، بعدما فر من المستر فاجنر. وانخرط فى العمل لدى المقاول التابع لميجر براملى.

وبراملى هذا، الذى كان عميلا نشطا للمخابرات الإنجليزية، لا يتوقف عن الهدم والبناء، والاختفاء، فى الوقت نفسه، فى أماكن غير معروفة، إلى جانب تردد زوار إفرنج على بيته عندما يكون حاضرا.

وعملت معاوله تقطيعا فى أعمدة المعابد الرومانية واليونانية، واستولى على آثار كنيسة أبو مينا القريبة من المنطقة، واقتلع الدرجات الرخامية للمبانى القديمة.. وهو ما أعطى لسعد باشا زغلول دافعا لإعلان غضبه صراحة من التصرفات المشبوهة للميجر براملى، فآثر الأخير تقديم استقالته ليعود بعد عدة سنوات، واشجيليف مازال يحوم فى المنطقة بحثا عن أهله وعن لقمة يتبلغ بها، ومكان ينام فيه، عاد براملى بعد ما تغيرت الوجوه، وجدت الأحوال، وقرر، على الفور، تخصيص برج العرب لتصييف الأوروبيين الذين توافدوا، بعد ذلك، على المنطقة وشاهدهم اشجيليف، وعرف الويسكى والسيجار والبايب والقبعة وأفخاذ النساء وهى تلمع تحت الشمس!

- «نا كنت نفكر في هلي.. ونفكر في اللى قدامى.. ايش يكون؟! -
قرر الميجر براملي، وهو المسئول فى برج العرب، والمشرف، أيضا، على الصحراء الغربية كلها، حتى أول جندى إيطالى مرابط على حدود السلوم، قرر منع عودة القبائل التى هاجرت إلى العامرية والبحيرة والاسكندرية، لنجوعها فى الصحراء.
وجعل زيارة الابن لأبيه لاتكون إلا بتصريح ، يوافق على استخراجه، أو يرفض ، وأحيانا كان يمزقه بعدما يوقع عليه، لسبب غير معروف!
وشيد حول برج العرب أسوارا وبوابات ضخمة، قاطعا بها الطريق بين الشرق الأخضر، والغرب الأصفر، وأثناء ذلك، وقع فى قبضة الانجليز، شاب بدوى اسمه إسرافيل، ومعه اثنان من قبيلتين مختلفتين، وما سمعه اشجيليف فى سوق العامرية، أنهم ، الثلاثة، كانوا يصرون على العودة لأهلهم، أما التهمة الرسمية التى علقوا من رقابهم عليها ، فهى اغتصابهم لامرأة من الأسرة المالكة كانت فى مصيف الأوروبيين!
ووقف اشجيليف ظهر يوم صيف يشاهد الثلاث خشبات التى نصبت قبل قليل، بجوار النادى الانجليزى فى العامرية ويتدلى من العارضة العلوية، ثلاثة حبال ، وحالما تجمع رواد السوق وأصحاب المحال والغرباء، ومن خلفهم الأطفال والنساء والعجائز..
وصعدت غمغمة، أعقبها صراخ شق السماء، وبرز الشبان الثلاثة

يلوحون للرؤوس المتزاحمة بأيديهم، ويصفرون لهم، ويسخرون أيضا بطريقة تثير البكاء.

سقط اشجيليف على الأرض، وأفرغ ما فى بطنه، وفى الليل، ترك الساحة المجاورة للنادى الانجليزى، وكانت الأجساد الثلاثة مازالت تؤرجحها الريح بين العارضات وأخذ يجرى ويجرى.. حتى طلع النهار ، نام بين جذور المثنان، والرمث فإذا عاد الليل، جرى وجرى، إلى أن خالط العلمين، ومنها، أخذ حمارا لبرانى. وكان يمر على آثار النجوع، ويقابل الرعاة، ويقضى الليالى، متجها للغرب، يسأل

ـ «ايش صار وايش طرى؟» ـ

وماذا وجد فى سيدى برانى؟ أبوه وقد مات وأخوه الكبير مفقود، ولم يعد بعد ذلك أبدا، وأخوته البنات، زوجات فى نجوع أخرى..

أما أمه.. فكانت وحدها، عمياء، تطحن الشعير، والرحى الحجرية تدور تحت ردنها. وعروق يدها تختلج تحت الوشم الأخضر.

الأخبار، هنا ، فى برانى، تأتى من الغرب.. الثوار المسلحون يتراجعون أمام قوات الوالى الإيطالى، حاكم برقة ـ اتيسليو تروتسى ـ وتمركزوا فى البطنان، ثم أمام جحافل الإيطاليين، أرسلوا ذويهم للسلوم، فاستوطنوا برانى، بجوار أم اشجيليف، واستقر آخرون فى النجيلة ومرسى مطروح، بما فى ذلك أسرة عمر

المختار التي أرسلها مع أسر الثوار، ليتخففوا من صراخ النساء وفزع الأطفال.

وفي المقابل، كان البدو - أولاد علي - من صحراء مصر الغربية، ينطلقون على خيولهم تحت الليل، يجتازون كتل الأسلاك الشائكة وخطوط الألغام التي زرعها الإيطاليون، لينضموا لـ «سيدي عمر..» - .. تخرج الكلمات من فم اشجيليف سريعة، ويشير بيديه ، خلالها، كأنه يصف ما وقع، أو أنه يحدد المواقع وحجم القادمين والنازحين.

وإذا كان المالكي ونوارة وسويد وشويقي، هم المستمعون لحكاياته التي لا تنتهي، يبالغ في وصفها، ويزيد بيديه إشارات وتحديدات شتى، يتصاعد دخان لفافته فوق رؤوسهم، مضيفا مواقف ساخرة. فيضحكون وينتعشون ، وينقلب سويد على جنبه مقهقها مثيرا حفيظة سوارم فتصيح من النافذة على زوجها ليدخل حجرته، أما شويقي، فيفتح عينيه، لحظة، ليضحك، ثم يرخي جفنيه، ولا أحد يعرف أمستيقظ هو، على ذلك، أم نائم!

ويتغير اشجيليف، عندما يسرد لبو المالكي، فيحدد المواقع بالضبط، ويؤكد الأشخاص الذين قتلوا، سواء بأيدي الإنجليز والألمان في صحراء مصرالغربية، أو بأيدي الإيطاليين، في صحراء ليبيا الشرقية.

ويحدث أن يذكر اسم أحد شهداء موقعة وادي ماجد، فيزيد على ذلك

بسؤال جاف لجاره.

ـ «عرفته؟!» ـ

وهكذا يمضي الليل، ورأس المالكي منكس فوق ركبيته، وحارس السجن يغني من آخر الممر الضيق القذر، أغنية باكية..

(١٣)

سندال كرته، زوج ربيعة، أين اختفى، لا أحد يعلم..

التقته ربيعة، أول ما التقته، عصر نهار خانق، عندما دخل عليها الخيشة، ليفض بكارتها.. وظنت تلك اللحظة، أنه شرس، مخيف، كان وجهه أحمر، وأسنانه عريضة وكبيرة وصفراء، وشاربه نافراً على جانبي فمه، بحدة.

تذكر ربيعة كيف استسلمت له وهو يقترب منها، يلهث، فيما يفتح فخذيها بعنف، ويمد يده، ومن أول محاولة، أدخل اصبعين، فانبجس الدم على الجرد(٤٠) الأبيض!

أما في الليل، بعد العشية، فقد داعبها، أول رجل يكشف شعرها، ويضمها إلى صدره، وبعد الزورة، أي بعد تلك الليلة بأسبوع، وعقب زيارتهم لبيت أهلها، فتح لها قلبه ومشاريعه وخططه.

- «السنة ما هناك مطر، والسنة اللي عدت، ما هناك مطر.. وبوي يقول اللي خلقنا يوكلنا، كيف يوكلنا؟

ينزل لنا خبز من السما!» -

عقب وفاة أبيه، وربما مات يأسا من عدم سقوط المطر، باع سندال كرتة نصيبه من الأغنام، وأخذ ربيعة إلى المدينة.. مرسى

مطروح.

ـ «شرينا هالبيت..» ـ تغرز ربيعة أصبعها في حصيرة الدار وهي تردد أمامهم مؤكدة..

واشترى في نفس اليوم حمارا وكارتة(٤١)، وأضيف اسم العربة الى اسمه، سندال، فأصبح جيرانه عندما يسألون عنه يقولون ـ «وين سندال كرتة؟!» ـ

كما سور جوار البيت زريبة، وحالما سمع صوت العنزات الثلاث ـ «مااااء ... ما اااء..» ـ

كانت الحياة تجرى على هذه الوتيرة، بما فيها فسحة يوم الخميس.. يصطحب سندال زوجته ربيعة، ويطوف بها، بالكارتة، شارع الكورنيش بطوله.

يربط الحمار في عامود نور.

ينزل هو وزوجته عبر الصخور والرمل، يجلسان أمام البحر، يستمعان وشوشة الموج!

مساء يوم خميس ، قبل ثلاث سنوات، غاب سندال، تأخر أولا عن موعد الغداء، ثم أنه لم يحضر شاى العصر. وقبل المغرب شارفت ربيعة من أمام منزلها على الطرقات الضيقة المتشعبة إلى داخل شوارع المدينة الواسعة.

أن يعود سندال، لكنه لم يعد!

قبل آذان العشاء بقليل، خبط الباب بعنف، وصاح جار لها :

- «.. سندال مسكته الشرطة، والكارتة والحمار خنوها المخبرين» -

كانت ربيعة ، وظلها يرتجف قبالة ضوء المصباح، تصور لهم كيف تخيلت الأمر في البداية، وهي تحدق في سويد، ابن اختها، ثم تصمت، وتتطلع لوجه المالكي، تتأكد أن وقع كلمة (الشرطة) و(المخبرين) عليها، وهي وحدها، قبل ثلاث سنوات، في هذا البيت وسط عزبة العجارمة الراقدة تحت الظلام، كان وقعا مرعبا عليها.. مرعبا إلى حد أنها شقت ثوبها، تهاوت في حوش البيت، تبكي وتبكي، وباب البيت مفتوح، وعيون الجيران تلمع في الظلام، حولها.

- «يا وليه انتي، تعرفي الراجل ده؟» - داخل مكتب رئيس المباحث.. سألها ضابط حليق يلمع وجهه ورأسه الأصلع تحت مصباح يطن في سقف الحجرة الأميرية.. وأشار ناحية الباب الواسع المخيف، الذي أدخلت منه توا.

عرفت، أولا، الرجال الثلاثة الذين هجموا على بيتها، وأحضروها هنا.. لأنهم كانوا عمالقة حقيقيين!

أول مرة في حياتها ترى أجسادا ضخمة، في آخرها محاجر عيون ضيقة، لا ترى.. لأنهم، وهم ينفذون أمر هذا الضابط الأصلع العصبي المنحل ليأتوا بها إلى هنا، اصطدموا بباب بيتها، فحطموه في طريقهم. دهسوا وقلبوا، كل صغيرة وكبيرة، رأسا على عقب،

بما فى ذلك قدر البطاطس.. عشاء سندال!

والآن، يسدون باب مكتب رئيس المباحث تقدموا بجلابيبهم الفضفاضة، وحينما توقفوا فجأة، برز من بين أردانهم، رأس مائل إلى جانب، مبلل بالماء أو بالعرق.

ـ «سندال..!» ـ وجرت تجاهه لكن أيدى قوية قبضت على كتفيها وذراعيها مثل كماشات حديدية، فتعلقت فى الهواء للحظة، وهى تشب نحو زوجها الغائب عن الوعى، ثم تكومت على الأرض، فشدتها الأيدى وأوقفتها على قدميها من جديد.

حدث كل ذلك فى لحظات، على طول الجملة التى رددها الضابط الأصلع

ـ «تستعبطى يا بنت الشرموطة..» ـ

كان المخبرون والجنود، الذين شلوا حركتها، يقفون خلفها، ولم تدرك ذلك إلا بعد ما سقطت وسمعت آخر كلمة صاح بها الضابط الذى أضاف ـ «ردى على قد السؤال.. تعرفى الراجل ده؟» ـ

كان المالكى وسويد وشويقى يحدقون فى عضلات وجهها، تنتفض، تختلج، مع اختلاجات ضوء المصباح، وهى تقص عليهم ما سمعته عن الأوراق، أوراق إثبات الشخصية.. أوراق عقد الزواج.. أوراق ملكية البيت.. بيتها هذا.. وكانت، وهى تقبض وتبسط كفيها أمام وجهها، بتصلب، توضح لهم، بكل ما أوتيت من قدرة، كيف أنها

حاولت أن تشرح للضابط والمخبرين والجنود، أن سندال كرتة، زوجها، بدون أوراق، وأن بيتها هو بيتها، بدون أوراق أيضا..

- «حبسوني، أى والله ، فى دويرة(٤٢) معفنة، قفلوا على باب، وعلى سندال باب. انحبسنا يومين.. لا وكل ولا شرب.

جا عمدة، ما نعرف اسمه، وطلعنا بضمانه.. راحت الكارتة وراح الحمار.. صادروهن، ومن ساعتها عرفت أن سندال ما يقعد ، غرب لليبيا، ومن يومها ما جاني منه لا خبر ولا مرسال..

ثلاث سنين، يا خوتي، وحدي..» -

باتوا ليلتهم، وشبح سندال كرته يحوم فى سقف الدار!

وقبيل آذان عصر اليوم التالى، كانوا ، سويد والمالكى وشويقى، يتجولون فى طرقات مدينة السلوم..

يتسمعون لأخبار الحدود.. من عبر؟ من عاد؟ ومن انفجر تحت قدميه اللغم، ومن أطلق عليه جنود المراقبة الرصاص؟!..

الحدود، على بعد ثلاثة كيلو مترات، من هناك، فوق هضبة السلوم.. ثمة الموت.. سيرحب بهم، ويقول - «أهلا وسهلا.. بالضيوف الثلاثة، الجدد..! » -

(١٤)

-» ....

دون السلوم توكبنا(٤٣)

حتى لقريشات (٤٤) شويه

حتى نحن ناس غلابه

....

وقف سواق العربية(٤٥)

وقف فى قطعة مقطوعة(٤٦)

قال البوابة(٤٧)ممنوعة

من غير بطاقة شخصية

....

قالوا لى، يا لاوى شاله،

لف انت والمتياوية.

....

راه الضابط كى يرعيكم(٤٨)

ساع يجيكم بالعربية(٤٩)

....

من خوفى جينا، يا مناتى(٥٠)

هابه(٥١)، لو ريتى حالاتى

شلت الجزمة وشراباتى

نجرى وسط المنياوية

....

جينا للسلوم عشية

للسلوم عشية جينا

من مطروح، أصحاب لقينا

شدوا بالعزمان(٥٢) علينا» .

المنياوى غريب، قادم من ضفاف النيل، ومع ذلك يبدو جافا، صامتا، صلبا مثل قضيب من الفولاذ، وملابسه، كما يذكر المالكى وهو فى محبسه، دائما بالية، واسعة ومهترئة وبشرة المنياوى، لونها لون ورقة ذابلة، عطشانة مع أنه قادم من ضفاف النيل!

وهو يعطش.. يجوع، أياما، ليالى، ولا ينفق آخر قرش يملكه، قد يصل به إلى ليبيا وهو، كذلك، ينصت إليك، وينفذ ما تأمره به، حتى إذا اكتشف أنك تخدعه، قتلك.. أو - بالضبط - ذبحك بسكين حادة.. وهذه السكين يحتفظ بها - مهما جرى - بين طيات ملابسه الرثة..

عكس البدوى، الذى قد يؤجل الانتقام، حتى تصدأ فى يده السكين، وتطوى خصمه الأيام!

. الحنين الجارف إلى هفهفة خصلات نوارة، على جبينها، إلى لمسة يدها الدافئة.. إلي ارتعاشة الشفتين وطرفة العينين، وهى تطلب منه أن يبقى ليل السجن بارد طويل. هل سيقص عليها كل ما مر به فى هذا العالم الغريب؟

أين هى الآن.. فى دار سوارم - أمها - أم فوق الرابية، تستشرف الآفاق..

أين أمه وأبوه، بشاحنته الخربة، الحبيبة، مع ذلك، هل يعلمون أنه هنا وحده.. بين جدران أربعة وروائح كريهة وشتائم.. ثم صمت مطبق.. وحذاء الحارس ينقر على الأرض نقرات رتيبة!

نوارة، والصباح الباكر، وانتفاضة الزرزور، والندى يبلل الأرض العارية.

ثقل القطار، العربات الحديدية، والعجلات تئن فوق القضبان، فى طريقها إلى المدن البعيدة. شوارع مدينة مرسى مطروح الخاوية، الليل الكئيب وذكريات ربيعة وزوجها الغائب - سندال كرتة!

سائق السيارة، مقاول المتسللين، وهو يجمع أوراق النقد من المنياوية، ومعهم المالكى وسويد وشويقى.

هضبة السلوم، ترتفع ، تقطعها الوديان العميقة، حادة الحواف.. وتحتها عند أقدامها الضخمة.. يرقد خليج السلوم.. يمتد أزرق هادئا، من هنا إلى ما لانهاية، الليل الخطوات المرتبكة.. تتحسس

طريقها بين رؤوس الألغام.. بين أنياب الكلاب المدربة، بحاسة الشم القوية!

دوت الرصاصة الأولى، فأربكت الطابور المتسرب بين الألغام الأرضية المضادة للأفراد..

تعثر الرجال فى عتمة الليل، فاختلط صوت انفجار الألغام، بتكتكة الرصاص وصياح الجند ونباح الكلاب، وفى الخلف، وراء كل هذا الصخب المفاجيء تتاهت أنات الجرحى وبكاء المصابين ولهاث الفارين.. وهم يتخطون آخر سلك شائك، ليستقبلوا أرواحهم على الضفة الأخرى من الحدود!

فى غبش الليل، وهم يغذون السير ، ويحثون الخطى صوب أضواء مدينة إمساعد.. أدرك المالكى أنه وحده، ومعه سبعة منياوية.. فقط.

وكان لابد أن يتوقفوا وينتظروا التسعة الباقين.. سويد وشويقى والآخرين، لكن ضوء الفجر سلخ الليل عن جدران مدينة إمساعد أمامهم، وعن خيام حرس الحدود، على الجانبين وأكوام الأسلاك الشائكة التى تعقد فى أقصى الجنوب مع حد السماء.

لم يأت أحد.. فواصلوا المسير.. للمصير المجهول.. رؤوسهم منكسة، وخطواتهم تثقلها أقدامهم الدامية..

(١٥)

غاب المالكي عن بيت والده ثلاثة أشهر، لا مرسال ولا خبر..
وأمه، حينما تتحلق حولها النسوة، تختلق لهن القصص عن ابنها العزيز.. المالكي، وكان جو الليل يساعدها. أما زوجها - بو المالكي فقد أمضه انتظاره لأول مبلغ يرسله ولده ليبعث به الحياة في محرك شاحنته.. يؤجل كل مشاريعه على أمل.. لم يتحقق!
اشجيليف، والد نوارة، جار بو المالكي، ينتظر بدوره عودة المالكي، ليحصل على هديته، صندوق تبغ، فيدخن كما ينبغي!
أما سوارم، أم نوارة، فرأت خلال الشهر الأول من سفر المالكي، أنه حالما يعود سالما غانما، ومعه المال الكافي، مهر نوارة.. ستتغير رتابة حياتها، وتتعطر بعطور ليبيا الفواحة!
لمحت بذلك لأم المالكي، لكنها بعد شهر من هذه الخواطر، عادت وقالت إنها لن تزوج ابنتها - نويرة - إلا بسياق(٥٢)لا يقل عن عشرة خراف حولية، وكسوة لها ولأسرتها وجيرانها.. وفي كل سهرة تجتمع سوارم في بيت بو المالكي، تضع الشرط فوق الشرط أمام النسوة، حتى قالت دون مواربة - «وبأي شيء يرد، اللي يغرب لليبيا؟! براديو ومسجل، ثوب جديد وبالطو مبطن.. وبعدها، المالكي، وليدك، الله يجيبه طيب، مازال صغير، وما يقدر على مصاريف بيت بنتي نوارة!» -

بعد اسبوع أضافت سوارم لأم المالكي - «اليوم جانا طلاب(٥٤) لنوارة.. بنتي!» -

ونوارة، إذ علمت ما يدور حولها أغلقت باب الدار عليها، وانخرطت تبكي.. تستعيد اللحظة والمالكي يستدير تحت الصباح الندى، متجها لمحطة القطار، كأنه يوليها ظهره إلى الأبد.. حينما سألته - «أي متى ترد؟» - لم يجب. فكرت بعد ما بكت حتى جفت في مقلتيها الدموع، أن تفر من أمها.. سوارم.. فهي الآمرة الناهية في البيت، ربما بسبب حجمها الضخم، الذي يساوى أربعة أو خمسة أمثال حجم زوجها.. اشجيليف!

لم تر نوارة عريسها المرتقب، ما سمعته ، في البداية، أنه من عائلة موسرة، وله دكان في شارع واسع في العامرية وعنده سيارة بيضاء مكتوب على بابها(نقل مطروح) وعلى صندوقها، من الخلف، بيت من الشعر - غناوة علم - «إعزاز باعدوا بالدار..» - وعرفت، كذلك، انه كان متزوجا، وأنه طلق زوجته، إذ اكتشف ، بعد زواجه بها، أنها لا تعرف كيف تطبخ الأرز الأحمر باللحم الضاني!

كما علمت أنه كان يهوى فتاة في قرية مجاورة، لكن أولاد عمها رفضوه، وهددوه بالقتل إذا دخل، بسيارته قريتهم، وقد يكون ، لهذا السبب، أنه كتب ما كتبه على صندوق سيارته من الخلف.

اسمه حمودة، لكن الاسم المتداول المعروف به هو فسوكتة، يزيد

عمره على الخامسة والأربعين. مكور ومبطط بحيث أن عنقه لا يظهر فيما بين رأسه وكتفيه، ويزفر ويشهق بصوت مسموع، وعندما يجلس إلى مقود سيارته تميل به إلى جانب.. وهذه المعلومات عرفتها نوارة بعدما أحضرت أسرة فسوكتة الكسوة والسياق إلى بيتهم.. حيث عرضتهما سوارم على جميع جيرانها، فيما كانت نوارة تعاود البكاء، في دارها، وحدها..

كان اشجيليف، قبل خمس عشرة سنة، الآمر الناهي في أسرته. وصوت سوارم لايعلو فوق صوته .. هذا الحال استمر قبلما يبتني بيته، وقتها.. هو ومحراثه وحماره، وقطيع أغنامه لا يفترقون. وسوارم تلبى كل إشارة من أصبعه، ارتحل بها من وطن إلى وطن.. نزل براني.. قضى الربيع بأكمله هناك.. حتى وضعت النعاج، واشتدت قوائم الحملان، فسار بها شرقا حيث حرث أرض عيت مجاور، أولاد عمه.. مناصفة ، في رأس الحكمة، على أمطار الشتاء.

طاف الصحراء متفاديا مواقع الألغام، يتقدمه كلبه الأسود الشرس، من موضع إلى موضع، حتى نادت الحكومة بعدما دفن الحلفاء والمحور جنودهم في العلمين ورحلوا، باستقرار البدو.. فسكن هذا البيت الحجرى، أخذ، من حينه، يستقطع من رؤوس أغنامه، حملا حملا، ونعجة نعجة، كأنه، وهو يعرضها في السوق، يبيع

قطعا من جسده، فإذا فرغت ، عاش سنوات من الضنك، لا يجد كسرة خبز يسد بها رمق أولاده فأخذت سوارم، على عاتقها، تدبير نفقات البيت، دون اتفاق فيما بينهما.

اقنعت أحد الموسرين، بعد أيام من التحايل، بأن تقوم برعاية معزاته فى زريبتها بالأجر . أصبح من حقها حليب المعزى.. وشهر بعد شهر سارت بهم الحياة. أفاق اشجيليف على نفسه، فأخذ يلقط رزقه كيفما اتفق، مرة يعمل في محجر طوب، وأخرى يعمل حمالا...

وهكذا.. يوفر ثمن الدخان لنفسه، أما الخبز، فسوارم الله يحفظها ، تتكفل به!

وعندما لايجد عملا، أو يصبح غير قادر عليه، يجلس خلف البيت، تحت النافذة، يلف التبغ فى الورق الشفيف، ويدخن ، فيما الأرض الواسعة تمتد تحت عينيه إلى ما لا نهاية.. جافة.. ما حلة .. منزوعة البركة!!

(١٦)

وقتما تزوج إشجيليف سوارم، كان قوامها غير القوام، ورقتها غير خشونة اليوم، وخطواتها خفيفة، خفة ريشة! فارعة الطول، حانية، خفيضة الصوت.

ولا تناديه باسمه مباشرة، تأدبا، ولا تتدخل في شئونه الخاصة، كما لم تجرؤ على أن تتفوه أمرة - «مرقدك جاهز..» - كما جرى بعد ذلك.

جمع ما تخلف من أغنام والده، تاركا برانى، يهتز رأسه فوق سنام الجمل، ووالدته، وزوجته، أمامه، فوق حمارين، أما الأغنام، فتتبعهم، إلى جوارهم، يصفها الكلب وينبح طوال الطريق إلى الضبعة.

لم يكن اشجيليف وعائلته الصغيرة وحدهم، يهبطون الوديان، ويرتقون الروابى والهضاب، ناحية الشرق، انضموا للمئات.. للآلاف.. من رؤوس الرجال المتكبرة، ورؤوس النسوة الباكيات، وأقدام الأطفال الحافية، والحمير المحملة بالخيام والخيش وقرب المياه..

تثير حوافر الأغنام والماعز والإبل والخيول، التراب، وهى تحوطهم بالغبار والثغاء المذعور والصياح، فيما الكلاب تتوقف، بعد كل

مشوار طويل، لتتلفت فيما حولها، وتنبح وكأنها تسأل - « إلى أين .. هو هو .. إلى أين هو هو ..» - ثم تهز ذيولها وتشم الثرى وتجرى..

وهناك.. بعيدا عن هذا الجمع الصاخب، الرعاة يسوقون ما تبقى من الأغنام والإبل، وقد عادوا بها من الجنوب.. ويصفرون من بعيد، مشيرين بعمائمهم، ليحددوا الدروب والمسالك.. ومع هذا لم يكن ليسمعهم أحد لشدة الضجيج المتلاطم بالغبار والأنفاس اللاهثة!

وعندما يذكر اشجيليف سنة الفرار هذه لبو المالكى، وهما يدخنان تحت نافذة سوارم، ويشربان الشاى، بينما الاولاد يتحلقون حولهم، يؤكد بو المالكى لنوارة - « إيوه.. وعرفت بوك فى هذاك الوقت، يا نوارة.. كنت عطشان، وهو مسك إيدى وصرخ فى وجهى وقال: ما تشرب.. الأبيار كلها فيها سم..» -

ويندهش الأولاد، ويسأل المالكى والده « فيها سم!! كيف؟!» -

فيصل اشجيليف ما انقطع، ولا يتوقف إلا ليمتص الدخان، مغلفا به الكلمات وهو ينفثه من أنفه ومن بين شفتيه، على دفعات بيضاء تتلاشى مع أنفاس الليل الباردة.

والسم، وضعه ما تبقى من جنود الخلفاء العائدين مهزومين من طبرق، فى جميع الآبار التى مروا بها، حتى العلمين، بعدما أفقدهم روميل، كما سمع اشجيليف وحفظ، ثمانية وعشرين ألفا، ما بين أسير وقتيل ومفقود.

وكان الجنرال أو كنلك - قائد جيوش الحلفاء فى الشرق الأوسط - يغضب على جنوده الرعاديد، فيتطاير شرر غضبه ليطال المعيز والأغنام والكلاب والحمير كذلك، وهى جميعا تَغِذُّ السير ناحية الشرق ويصدر أوامره بإخلاء الصحراء، ويصرخ، كما كان يصرخ المستر فاجنر.

- « نو بدون .. نو شيب.

نو كامل.. إتس دانجرس..» -

إلا أنه أضاف ، فوق ذلك.

- «أند.. نو ووتر..» -

وعليه سمم الجنود الآبار التى مروا بها، وزادوا فوق ذلك، بزراعة العلمين بالألغام، بعرض أربعين ميلا، ما بين البحر شمالا، وبين المستنقعات الملحية التى لا يمكن عبورها عند منخفض القطارة جنوبا.

وخلف حقل الألغام الشاسع، الذى لا يحده بصر، وقف الجنرال أو كلنك، فاردا يديه فى خصره، كما تفعل سوارم، وصاح - « ستوب.. وى ويت فاكِن نازى روميل هير..» -

ولم يتوقف المرتحلون البدو عند الضبعة كما كانوا يبغون، بل أخذ الجنود يدفعونهم إلى الشرق بيد، وباليد الأخرى يسممون الآبار ويزرعون الأرض.. بالألغام!

وتواصل الفرار، حتى حذود الحمام وبرج العرب - مصيف الأوروبيين - والعامرية ، للمرة الثانية، ومنهم من أوغل فى المسير، هذه المرة، ولم ينزل عن حماره إلا فى كفر الدوار وحوش عيسى.

- «ستوب ..» - كان اشجيليف يقلد الجنرال ويضحك، ووجهه يغطيه الطحين، وقد سال عليه العرق فى خطوط تنحدر من جبينه وتتشعب على وجهه العجوز، المطبوع على جدار غرفة الحبس، أمام المسجون المتسلل - المالكى، ثم فجأة يتجهم، تلمع الدموع، وتغطى عينيه، كأنهما عينا نوارة.

نعم، هاهى نوارة.. لكن صوته يعود فجأة مدويا ، فيرفع المالكى رأسه مرة أخرى.. مازال الليل طويلاً، والبرد ينخر العظام، مثل الوحدة تماما .!

(١٧)

ـ وتم م العيشة محتار(٥٥)

وعنده فى البيت وشاشين(٥٦)

وعنده هبودن(٥٧) كاثر

وتم(٥٨) م الوقت يفكر

حسابه(٥٩)فى الكدان كثر

مسك عنه ما عاد يجر(٦٠)

وفلس ويريد سجاير

وما يكسب حتى عنزين

وقاصر عن حق الدخان» ـ

تقرر زواج نوارة من فسوكته قبل موسم الشتاء ـ الذى هو، فى الحقيقة امتداد لموسم الخريف ـ وأصبح لنوارة خمسة أسابيع لتستعد لمراسم الزفاف.

قامت سوارم بإعداد الثياب عند خياطة مجاورة. علفت النعجات الخمس التى تبقت من السياق، لتنحر اثنتين منها يوم رحيل نوارة لبيت فسوكتة. كانت تخطط للاحتفاظ بالثلاث الباقية، رصيدا جديدا لثروتها!

اشجيليف، وهو يدخن تحت النافذة، خلف بيته، يستمع لنهنهة نوارة، وبكائها المكتوم، من داخل حجرتها ـ وهذا ما دفعه لأن يدخن

بشراهة أكثر، ويستنفد مخزونه بلا حساب.

ظل بحالته هذه، إلى ما قبل يوم الزفاف باسبوعين اثنين، إذ دخلت عليه سوارم، وهو يجمع حاجياته فى خرج.. ثوب .. سروال.. تبغ، وورق لف، زوجته، التى غرزت راحتيها فى وسطها، وحدقته مليا، فى محاولة لاكتشاف ما يريد أن يقوم به. ظلت هكذا ، صامتة.. حتى التفت إليها، واضعا خرجه فوق كتفه، قائلا، وقد حسم أمره :

«.. نا مغرب.. ماشى لليبيا ..»-

للحظة، انتاب سوارم ذلك الشعور القديم. تجسمت أمامها المهابة القديمة لزوجها، اشجيليف انعقد لسانها. تابعته وهو يجتاز عتبة الدار، ثم وهو يخرج من باب البيت. عقب ذلك، وهو يختفى، فى طريقه إلى محطة القطار..

سوارم، التى وقفت مشدوهة، وقد علقت ناظريها على الوجهة التى اختفى عندها، ما لبثت أن تهاوت على عتبة بيتها.

انفجرت فى موجة بكاء، اهتز جسدها الضخم، كما لم يهتز من قبل.. تبكى انكسار زوجها.. انكساره الذى لم يلتحم منذ خمسة عشر عاما!

بعد نحو ساعة، كانت سوارم تجفف دموعها. حولها أم المالكى، وأبو المالكى، وأطفالهما بالإضافة إلى عدد من الجيران وأطفالهم. نوارة وأخوتها استكانوا بجوار أمهم انتابهم الفزع.

تبادل الجمع كلمات المواساة وخففوا عنها بشتى الطرق.

وحالما نصب البراد على النار، وعبقت رائحة الشاى بين جدران البيت المفجوع ، قالت سوارم.

- «وين يمشي ، وهوكبير، متكسر،.» - ثم لاذت بالصمت، مجددا، مرت خمسة عشر عاما، في رأسها، مثل لحظة.. قضاها اشجيليف وحيدا تاركا لها قيادة البيت.. والسلطة المطلقة. تذكرت أنها لم تتبادل معه، مذ باع آخر نعجة من قطيعه، سوى كلمات قليلة، تعد على أصابع اليدين!

تأجل زفاف نوارة ريثما يعود والدها. دعم التأجيل الجيران وعيت بو المالكي. رضخ فسوكته، في البداية، للأمر. وما لبث أن أظهر تبرمه، فإذا ما تطاول على اشجيليف، في غيبته، ناعتا تصرفه، في هذا الوقت بـ «الشايب المكلوب الخارف،.» - واجهته نوارة بالشتائم الصريحة - «ايش تريد مني يا منفاخ يا شكوى(٦١) يا برميل التر؟!»(٦٢) -

على هذا أرسل فسوكتة أمه وعمته، لاستعادة الكسوة والسياق والذهب. واجهت سوارم هذه المشكلة بالبكاء.

ثم باعت قطعة الأرض التى تقع عليها زريبتها. واستكملها جارها، بو المالكى، بعض مما فقدته، أو باعته، وأصبحت تقول بملء الفم - «إيوه.. رديت لهم كل شيء.. على داير مليم اصفر، وما خذنا منهم

غير قلة القيمة..»

عادت نوارة لملابسها القديمة.

كما أصبحت ، مع مشرق شمس كل يوم جديد، تقف فوق الرابية، تستشرف الآفاق، فقد يظهر ، من هنالك، أبوها اشجيليف، أو جارها، المالكى الذى طال غيابه..

(١٨)

ـ «زمان شين

زمان عجايب

زمان ما معقب شى

ياما جايب،

فيه العويل يدبروا ع الشايب(٦٣)

وإن دبر يقولوا رياك(٦٤)

ما نفعنا!

وهو كان في عصره يرد العايب.

يجيب الفخر، فارس شهير معنى،

يا ما قتا(٦٥) م اللى عراض جنايب(٦٦)

فى دير عافنى(٦٧) فيه ما تمنى

ويوم ظميها(٦٨) تحدر(٦٩)تقول كتايب(٧٠)

وضنت(٧١) عليه

وقال طيبك ضنة

فيده(٧٢)فراز(٧٣) خرزه (٧٤) شايب خايب (٧٥)

ورشا (٧٦) جديد،

يا مقوى اللى اقتلنه(٧٧)

ومنهن يغزر فـ ما ستين جدايب(٧٨)

يردن(٧٩) عليه أفواج ما انزحنه(٨٠)!

واليوم ..

راحوا وين نزالة الجطية(٨١)

والعيشة الهنية

ووين البير والجمل والحوية(٨٢)

اليوم مرتكن ع الجنب،

ماله نايب(٨٣)

كي عاكسن الأيام، ما ارحمنه.

زمان شين!» -

الجدران.. طنين الصمت.. طول الليل.

هنا، ضم المالكي جسده المرتعص ،

وانكمش. برد . وحدة. يأس.. دوّم الرأس موجوعا . طوّف في عوالم بعيدة..

رحل، من جديد، إلى الربوع.. الآفاق الرحيبة!

بهذه الطريقة، وحدها، تسهو تتحرر بخيالك.

لايبيت السجن سجنا، فتنطلق إلى حيث تشاء!

في ميناء بنغازي كان أولاد علي .. قناشات، صنقر، أفراد ، عشيبات(٨٤)

.. وغيرهم مع المنياوية

ترسو سفن الطحين جوار رصيف الميناء، عشرات الأكتاف، والرؤوس المنكسة تئن تحت ثقل الأجولة المدكوكة.. إلى الشاحنة.. عبر السقالة الزلقة المائلة..

لا يتبين وجه المالكي، بعد الظهر، من وجوه رفاقه الملطخة بالطحين الأبيض.. وقد شكل العرق خطوطا غريبة على الجباه والخدود الغائرة..

هدير الناقلات.. صفير السفن، زعيق الحمالين.. صخب يصم الآذان، ربما اضطر اشجيليف للاقتراب أكثر، من هذا الوجه الخارج لتوه من تحت مياه الصنبور ، ويعاود السؤال بصوته المتهدج المتعب ـ «يا وليدى، أنت هو المالكى، ولد بو المالكى.. فى مطروح.. برج العرب.. انت هو جارنا.. هه؟!» ـ وهزه بيده ، فالتفت المالكى للوجه الطحينى المرعب : أنت ، من هو ؟

ـ« الله يخرب بيتك ! نا اشجيليف.. جارك» ـ

سعل، تهاوى منهكا.. على الأرض الوحلة ـ «اشجيليف.. صاحب بيت عمتى سوارم؟!» ـ

وحمله المالكى. أجلسه على طاولة واطئة.. غسل وجهه، واشعل له سيجارة. كان اشجيليف يمتص الدخان بشراهة، ويبكى بشهيق مسموع، بدموع كبيرة ظاهرة، تدحرجت على خديه واستقرت على جانبى شاربه الأشيب.

فى الليل، حول ضوء الشموع، تحلق المالكى واشجيليف وسكان البراكة(٨٥) على براد الشاى.

كان اشجيليف قد قال كل شىء، بما فى ذلك ما يتعلق بفسوكتة!

لا يعرف المالكى، حتى الآن، الدافع الذى يذكره بجلسته فى بيت ربيعة، كلما طافت بمخيلته هذه الليلة.. فى البراكة المجاورة للميناء، ربما الضوء الخافت.. الحزن أو الفقد. فقد قص لهم كيف انتهى سويد، وشويقى. بات اشجيليف يدخن ويستمع للمالكى.. يحدق فى الظلام، وينفث الدخان، والمالكى ينبش بأصابعه خيوط الفراش الرث الممزق.. وبعد صمت طويل قال - «نحن مالنا مقعد هنا.. من بكرة نشرقوا لهلنا..» - وربت على ركبة اشجيليف، وازدحم رأسه بالرابية.. نوارة.. شاحنة أبيه.. وزوجة سويد - الأرملة، وأم شويقى - الثكلى!

استيقظ المالكى ، وحده ، فجرا.

مشى للخلاء، مفكرا فى طول الطريق الذى سيقطعه، ليصل إلى الاسلاك الشائكة، وحقل الألغام، يعبرهما لوطنه الحبيب.

صفحة السماء مخضبة بالحناء..

مزق السحب الداكنة مبعثرة بامتداد الأفق، برزت الشمس، من تحتها ، واستدارت قرصا برتقاليا.

عاد المالكى لـ (البراكة) وخلفها تجلت معالم الميناء، وبدأت تدب

فيها الحركة، بل تناهى، إلى هنا، بداية صخب يوم جديد.. كانت الشاحنات تصطف وتقرقع وتهدر.

طيور النورس البيضاء حلقت حول رؤوس البواخر السامقة، واختفت، ثم ظهرت هناك.. بطول الساحل ورصيف الميناء.

ملأ الحمالون (البراكة) برائحة التبغ والخبز المحمص وعبق الشاى.

اشجيليف لم يستيقظ بعد، ولم يستيقظ، بعد ذلك، أبدا.. كان ممدداً على ظهره، وفوقه ملاءة صفراء مهترئة، ومن جانب ترى شيب شعره، خلف الأذن تماماً، وقد عقد ذراعيه على صدره، مات وهو نائم، ربما بسبب انسداد رئتيه بدخان التبغ ـ طوال خمسة عشر عاما ـ ، وغبار الطحين ، ربما ..!

ـ «لن أعود.. بما أعود.. خمسة وأربعون دينارا، وخبر شؤم.. أخبار شؤم؟! ـ دفن المالكي وسكان (البراكة) اشجيليف فى مقبرة مجاورة، قديمة، مهملة، ولا يزورها أحد!

فى اليوم التالى جاءته رسالة من والده ـ « .. العربية خاربة وما عندنا ايش ناكلوا .. ابعث قروش، اليوم قبل بكرة..» ـ

(١٩)

ـ « .. فى البوابة كى(٨٦) وصلنا

طلع المسدس نزلنا

بكفوقة حلوات عدلنا(٨٧)

....

قال أنستونا بالجيه

قال أنستونا بجيتكم

ستبقى سودا ليلتكم

ايش اللى ذاهب شيرتكم(٨٨)

نين جيتوا فى هالعربيه.» ـ

بو الدبوسى رجل قصير نحيف وجهه مكسو بالشعر، من فوق جبينه تبرز خصلات نافرة مثل لمة سنابل جافة. لا يضحك لا يهزل. ومن يحاول معه، يلكمه أو يلقى فى وجهه بأى شىء يجده بين يديه، حتى لو كان إطار سيارته الاحتياطى!

سيارة بو الدبوسى، ماركة (مازدا) صفراء، واطئة تزحف على الأرض لها صندوق، بدون لوحات معدنية وضع المالكى يده على جانبها وقال ـ « سمعت إنك مشرق.. للسلوم.» ـ

ـ«إيوه..» ـ رد بو الدبوسي غاضبا بلا سبب، وأضاف ـ «معاك بضاعة؟» ـ

ـ « لا .. بطولى(٨٩)» ـ أجابه المالكى وأردف ـ «تأخذكم ؟» ـ

ـ « ايش تدفع؟» ـ

ـ «ما نقدر عليه.. خمسطاشر..» ـ

ـ «خمسطاشر ايش .. مصرى ولا ليبى.. » ـ

ـ « بالمصرى..» ـ قال المالكى وتراجع. نهض بو الدبوسي حانقا ـ « من أى اخوتنا.؟» ـ سأل من تحت أسنانه، ركب سيارته، أدار محركها.. مال عليه المالكى وأجاب:

ـ « مالكى.. من الذراع(٩٠).. البرج.. برج العرب.. ويوى سواق على عربية نقل ... و .....» ـ

ـ « اركب .. تدفع خمسة وعشرين مصرى، والباقى سموح ، عشان خاطر الموالك وعرب الذراع، والبرج، ومطروح، وأولاد على ..» ـ

طافت (المازدا) شوارع بنغازى الخلفية. انطلقت بعدها نحو مدينة طبرق. فى صندوقها أجولة طحين. صناديق شاى. صنادل جلدية. ثلاثة جراكن مياه. ثلاثة أخرى من البنزين الفواح!

زقزقت طيور الفجر خلال الأشجار المجاورة لمبنى السجن . برد السحر نخر العظام. الغرفة ضيقة. عطنة. جدرانها صماء. قرقع صوت أقفال وسلاسل. تأوه رجل. سعل حارس ليلى. زعق آخر

برخاوة ـ « ياالله.. نظافة..» ـ ابتعد، اختلطت همهمات مضطربة، جلجل آمر آخر، وهو يضرب الفناء بحذائه الثقيل ـ « نظافة.. العنابر.. بعدها حوش السجن، وكمان المجارى، طفحت ، كلها، امبارح!» ـ

وبجوار غرفة حبس المالكى، صوت آخر مشروخ ـ «قوم يا ابن الجربانة.. لسه نايم!؟» ـ

ومن نهاية العنبر تلاشت الشتائم القذرة ـ « انت فاكر نفسك على سرير أمك ياله..»ـ

كم ود المالكي لو طال الليل ببرده ووحشته.. يبقى « وحده، فيطلق العنان، جسد خدره زمهرير الليل، نور البكور يتسلل عبر القضبان الحديدية، لو يستكمل رحلته مع بو الدبوسي وهو يحكي حياته بفراغ صبر كأن سيرته شيء كريه، مثلا، عندما احترف رعى أغنام نجع أهله جنوبى برانى، قال ذلك بقرف ـ «وبعدها كبرت.. ومشيت للسوق.. قبض على العسكر.. وحبسونى تعرف.. يريدوا شهادة ميلاد، بطاقة شخصية، موقف من التجنيد..» ـ وضحك، رغم ذلك، وضرب مقود (المازدا) بيده المغطاة بالشعر، وأردف ـ «هربت منهم.. غافلت الحارس وجريت يوم وليلتين.. أي والله يا مالكى.. وما قدر مخلوق يعرف وين طريقي.. من أين نجيب لهم أوراق.. أنظر، ويقول لى الضابط : أنت مصرى ولا ليبى.. يا ابن الشرموطة.!» ـ

هرب بو الدبوسى لليبيا. عمل راعيا للغنم لدى موسر فى البردى. لا يعلم المالكى كيف انتقل بعدها لقيادة (المازدا) الصفراء، وتهريب السلع عبر الحدود. لم يسأله. كان ليل، خوف.. أمام أسلاك شائكة وحقل ألغام . أضواء السيارة مطفأة. الصحراء تتراجع تحت عجلاتها . تقذف الحصى والنباتات الجافة، بقهر، وراءها.

عندما كشفتهم داورية الحدود، وطاردتهم، أخذ بو الدبوسى يغنى، دعس البنزين وجهها صوب الجنوب. رأسه يتأرجح ، يضرب سقفها ومقودها ويغنى وهى تئن تسابق الريح وأزير الرصاص بكل ما وضعت فيها من قوة. أخيرا صاح - «توهناهم .. راحوا .. توا نتريحوا ..» - وزود السيارة بجركن بنزين. غسل وجهه.

تمدد على الأرض، وضع أذنه عليها، وتنصت - «نحن، توا، فى أمان..» - بعد قليل ركب السيارة. أدار مفتاح المحرك.. لكن (المازدا) الصفراء ردت بالصمت ربت عليها. استعطفها. المحرك توقف، تسلل البرد داخله، ومات.

ضج عنبر السجن. اقتربت خطوات من غرفة حبس المالكى. آن أوان العمل ، كسح المجارى فى فناء السجن. لو يبقى وحده.. نصف ساعة أخرى.. ليسترجع الليل.. بالضبط ، الفجر.. يسير خلف بو الدبوسى. يحمل كل منهما جركن مياه. ينقله من يد ليد، تحت شمس الصحراء. فى الضحى والظهر والعصر، وأول الليل..

أنْ يظهر السلك الشائك .. الحدود.. لا شيء.

هدهما التعب، في اليوم التالي، وهما يتبادلان حمل جركن واحد ويتبادلان معه الشتائم!

ثالث يوم، نفدت المياه. تقرحت الأرجل. إصرار على مواصلة المشي، تحت نجوم النهار ونجوم الليل!

آخر مرة، رأى فيها المالكي صاحبه بو الدبوسي، يزحف نحو السلك، يبسّه العطش والجوع، ثم ، مثل انخطاف البرق، دوى انفجار.

طار التراب والحصى وأشلاء بو الدبوسي.

لم يتذكر المالكي جميع التفاصيل.

فُتِحَ باب. سلمه الحارس أدوات لكسح طفح المجاري. أجّل كل التفاصيل لليلة التالية.

كل ما يتعلق بوالده، أمه، أخوته، واشجيليف وسوارم وربيعة، وسويد وشويقي. وفي الأعماق ظلت نوارة بوجهها البريء الطيب، وابتسامتها الحزينة الساخرة!

هوامش:

(١) الهضبة

(٢) كثيرون

(٣) صدرية سوداء فى الغالب تلبس فوق الثوب الابيض

(٤) حطة حمراء توضع على الرأس خاصة بالرجال البدو

(٥)عمود وسط الخيمة لرفعها لأعلى

(٦) منطقة العلمين غرب الإسكندرية بحوالى ١٣٠ كيلومتراً

(٧) البدو

(٨)لا

(٩) جمل

(١٠) أغنام

(١١) المخيم

(١٣) الزوج

(١٤) الحال ليس على ما يرام

(١٥) خجل

(١٦) أى اتخذنا رأيا وسرنا عليه

(١٧) أنا ورفاقى

(١٨) بأى شىء مسكت، أى: ماذا وجد معك حرس الحدود عندما ألقوا القبض عليك؟

(١٩) من قبيلة السمالوس

(٢٠) من قبيلة القطعان

(٢١) من قبيلة المعابدة

(٢٢) من قبيلة الحبون

(٢٣) أتنتظرينى؟

(٢٤) حتى الموت

(٢٥) تبحث عنك
(٢٦) لاوى: صفة للفتاة التى (تلوى) شالها حول عنقها أو على كتفيها كإشارة للحبيبة بعيدة الديار
(٢٧) قطار الساعة الثانية عشرة
(٢٨) جماعات
(٢٩) (٣٠) (٣١) أسماء قبائل
(٣٢) المعزة الصغيرة
(٣٣) الرضع من صغار الماعز
(٣٤) اسألوا
(٣٥) ماذا بك
(٣٦) فى عمر نوارة
(٣٧) مؤخرة الخيمة البدوية. والرمة: الحبل الذى يشدها بالوتد.
(٣٨) عمود وسط الخيمة لرفعها لأعلى
(٣٩) مدينة غرب الاسكندرية مباشرة
(٤٠) رداء أبيض ينسج يدويا من الصوف ويرتديه الرجال البدو
(٤١) عربة خشبية تسير على إطارين ويجرها حمار لنقل الركاب داخل المدينة
(٤٢) تصغير لكلمة دار
(٤٣) قبل السلوم بقليل حلت بنا كارثة
(٤٤) القروش
(٤٥) السيارة
(٤٦) فى منطقة مهجورة
(٤٧) بوابة حدودية
(٤٨) إذا الضابط رآكم
(٤٩) سيأتيكم بالسيارة
(٥٠) يا مناى: يا حبيبتى
(٥١) يا للهول
(٥٢) العزومة
(٥٣) ذبائح تنحر عند الموافقة على طلب يد العروس
(٥٤) أسرة تأتى لطلب يد العروس لابنهم.

(٥٥) أصبح من عجزه عن تدبير نفقات المعيشة محتارا
(٥٦) الأطفال الصغار الكثيرون
(٥٨) أصبح
(٥٩) أى، حساب ديونه
(٦٠) يبيع السلع بالأجل
(٦١) القرية لخض اللبن
(٦٢) الخراء
(٦٣) الرجل المسن
(٦٤) أراؤك
(٦٥) امتلك
(٦٦) الإبل
(٦٧) رابية يكثر عليها العشب
(٦٨) يوم عطش الإبل
(٦٩) تهبط المنحدر
(٧٠) مثل كتائب الجيش
(٧١) ضنّت: اتجهت والتفت حوله ليرويها
(٧٢) فى يده
(٧٣) دلو من جلد الخراف أو الماعز
(٧٤) صنعه
(٧٥) رجل كبير السن صنع دلواً كبيراً لسوء تقديره
(٧٦) الرشا: حبل الدلو
(٧٧) أى قتلته نسوة قويات
(٧٨) دلالة على كثرة الماء أى ليست سنوات جدب
(٧٩) يردن البئر
(٨٠) أى أن أفواج الإبل لم تنزح ماء البئر لغزارته
(٨١) الدالة الخطية: الرعاة الرحل
(٨٢) الحوية: الخيمة البدوية المصنوعة من صوف الأغنام وشعر الماعز
(٨٣) أى أن هذا الرجل الذى كان يمتلك إبلا لا حد لها ، أصبح (مـركوناً) بلا مال ولا أحد يستمع لرأيه أو يعمل به

(٨٤) من قبيلة العشبيات

(٨٥) خص متنقل لسكن العمال الغرباء

(٨٦) كي : عندما

(٨٧) صفعنا على وجوهنا حتى اعتدلنا واقفين

(٨٨) ماذا غيب عقولكم ؟ لتأتوا في هذه السيارة - المقصود سيارة الشرطة الحدودية

(٨٩) أي وحدي

(٩٠) منطقة سكنية غرب الاسكندرية قرب مدينة برج العرب.

فى الأعداد القادمة

١- آخر حكايات سهرانه فى قلبى - عبده الزراع

٢- حكاية بكاء النيل - أحمد صلاح كامل

٣- الألوان ترتعد بشراهة - شريف الشافعى

٤- أيام فى الأعظمية - فريد معوض

٥- المملوك - محمد عبد الناصر أبو زيد

رقم الإيداع : ٩٩/٣٩٣١

شركة الأمل للطباعة والنشر

ليلة فى سجن المالكى

عبد الستار حتيتة

عندما اختارت لجنة التحكيم فى مسابقات هيئة قصور الثقافة، هذه الرواية للفوز بالجائزة الأولى فلأنها تستحق الجائزة بالفعل لعدة اعتبارات، أهمها البيئة التي تجرى فيها أحداث الرواية، فهى بيئة مصرية، ولكنها تتسم بخصائص مغايرة فى العادات والتقاليد وسلوكيات الحياة اليومية، حتي اللهجة المحلية التى انطق بها الفنان شخصيات روايته أضافت إلى هذه المغايرة بما يثرى الرواية المصرية - والعربية بعامة.



الثمن ٢جنيه

شركة الأم